حياتنا

تأملات في واقعنا الاجتماعي

حياتنا

تأملات في واقعنا الاجتماعي

د. محمد العبدة

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

ليس هناك انفصال بين واقعنا الاجتماعي وواقعنا السياسي أو الفكري، فالحياة متشابكة وليست أجزاء متفرقة، والإنسان ليس قلبًا أو عقلاً أو جسدًا، ولكنه كل هذا، وبشكل معقد ومترابط، ولكن هذه المقالات تتحدث عن جانب من جوانب هذه الحياة، إنها رصد لطريقة التعامل بين الناس والأخطاء الاجتماعية التي نرتكبها، وخاصة علاقة الصداقة التي يحتاجها الإنسان للدفء الاجتماعي.

تحدثت في عديد من هذه المقالات عن الشباب والشابات، فهم العنصر الفعال وجيل المستقبل، والأخطاء الداخلية والأخطاء الخارجية تتناوش هذا الجيل، وهذا ما يدعو للاهتمام الجاد بهم، إنهم بحاجة إلى التوجيه السليم، بل إلى الغوص في المشاكل التي تعترضهم والحلول الناجعة التي تساعدهم.

وتحدثت عن عاداتنا السيئة التي تعرقل الجهود وتبدد الأوقات، إنها موروثات لا ينفك عنها بعض الناس، ولا بد من إعادة النظر فيها، أو التخلص منها، فالمحافظة على القديم ولو كان على غير هدى مما تألفه الشعوب أحيانًا، حبًّا في القديم، وخوفًا من التغيير والتجديد.

ومن الأمور المهمة في حياتنا الحديث عن المال، كيف ينفق وأين ينفق، فالمسلمون ليسوا فقراء، ولكن طرق إنفاق المال هي المشكلة، وعندما يتم معرفة أولويات الإنفاق فإن هذا يصلح أمورًا كثيرة في المجتمع.

ومن العادات الحسنة التي لم تترسخ بعد عادة القراءة والاهتمام بالكتاب، مع أن المسلمين في أوج حضارتهم بلغوا من الاهتمام بالكتاب والقراءة مبلغًا لا يدانيهم فيه أحد.

هذا وقد أضفت تذييلاً لهذه المقالات بعض الأقوال والعوائد المناسبة. إنها ليست من باب التزيين، ولكنها خلاصة قراءات، وخلاصة تجارب قائليها.

واللَّـه الموفق والهادي للصواب.

د.محمد العبدة

الصداقة والصديق

كم نحن بحاجة في هذه الأيام إلى صديق حميم، هو شقيق الروح، ومؤنس الوحدة، والمدافع في حال الغياب، والذي تستطيع أن تبث له همومك وأحلامك دون تكلف أو حذر ومواربة «فليس بأخيك من احتجت إلى مداراته» كما يقول الإمام الشافعي.

كم نحن بحاجة إلى صداقة تستمر في السرّاء والضرّاء، وخاصة ما نراه من اشتداد النزعة المادية وغلبة الروح الأنانية؛ فالصداقة مشتقة من الصدق، ولابد أن يكون فيها من الصراحة والعفوية ما ترتاح إليه النفس، ومثل هذه الصداقة هي لذة روحية يدركها من يسّر اللَّـه له أن تنعقد المودة بينه وبين رجل من ذوي الأخلاق النبيلة والآداب العالية.

ليس بالأمر الهيّن إيجاد مثل هذا الصديق، وخاصة بين الأنداد، حيث تكثر المنافسة والحسد، وإذا لم يكن صديقًا حميمًا فقد يكتم عنك ما في نفسه، ثم يستخدم ما سمعه منك لطعنك ويرديك في الوقت الذي يراه مناسبًا له إذا استطاع.

في الإنسان جوانب كثيرة متنوعة، إلى درجة أن أحدًا من الأصحاب ليس قادرًا على الإحاطة بها جميعًا أو فهمها جميعًا، ولذلك تكثر الأخطاء في نظرة هؤلاء الأصحاب إلى صاحبهم، ويضطر هو للاحتفاظ ببعض جوانب نفسه، واطلاع الآخرين على بعضها مما يراه جديرًا بالبَوْح، وهذا لا يعني عدم

وجود صداقة حقيقية، ولكن إذا وُجد هذا الصديق فيجب أن نشدّ أيدينا عليه، ونكون أشد ضنًّا به من النفَائس والأموال، ولا نعامله بالمداراة والمواربة، ولكن بصفاء النفس والقلب.

قال مجاهد: إذا تراءى المتحابان فتصافحا وتضاحكا تحاتّت خطاياهم، فقال له عبدة بن أبي لبابة: إن هذا ليسير. قال له: لا تقل ذلك؛ فإن اللَّـه يقول: ﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ [الأنفال: ٦٣].

ومن الحرص على الصداقة ما حكاه القاضي عياض في (المدارك) أن الإمام سحنون وصاحبيه عون بن يوسف وابن رشيد دخلوا على أسد بن الفرات، فسألهم عن مسألة، فابتدر لجوابه صاحبا سحنون وسكت سحنون؛ فلما خرجوا قال له صاحباه: لِمَ لَمْ تتكلم؟ فقال سحنون: ظهر لي أن جوابكما خطأ – وبيّن لهما ذلك – فقالا: لِمَ لَمْ تتكلم بهذا ونحن عنده؟ قال سحنون: خشيت أن ندخل عليه ونحنَ أصدقاء ونخرج ونحن أعداء.

إن صداقة الفضلاء من الناس تنبت نباتًا حسنًا وتعطي ثمارها، ولكن قد يظهر من الصديق هفوة أو هفوتان، فلا يعني ذلك الهجر والملام، ولكن الإعذار أو العتاب.

ومن طرائف ما قرأت عن الصداقة أن دراسة علمية قام بها فريق من جامعة (كنجز كولج) في لندن تدعو إلى تنمية التواصل بين الإنسان وأصدقائه، وأن الصداقة هي الفرصة لحياة هنيئة، وأنها تُبقي الإنسان في حال الحيوية والنشاط وخاصة عندما يقوم برعاية أصدقائه.

* * *

شخصية المسلم المعطاء

شخصيتان مختلفتان بل متناقضتان رسمهما لنا رسول اللَّـه ﷺ بأجلى صورة وأدقها، رجل معطاء كلما أنفق ازداد انشراحًا وانفساحًا، ورجل شحيح كلما حاول الإنفاق ضاقت عليه نفسه، وكان خروج روحه أهون عليه من الإنفاق.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول اللَّـه ﷺ يقول: «مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جنّتان من حديد، من ثُدييِّهما إلى تراقيهما، فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت على جلده حتى تخفي بنانه وتعفو أثره، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئًا إلا لزقت كل حلقة مكانها، فهو يوسعها فلا تتسع» [متفق عليه].

هذه صورة العطاء والبخل، ولكنهما يمثلان أيضًا شخصية الإنسان المعطاء في كل شيء، وشخصية الشحيح في كل شيء. الشخصية الأولى معطاء في العلم والمال والوجه الطلق وإدخال السرور على الناس، معطاء في حواره وكلامه وإصغائه. والشخصية الثانية متشرنقة على نفسها، فيها كزازة وضآلة، وهي أبعد ما تكون عن الطبيعة الإنسانية، عندما يتحدث معك لا يفكر إلا في تدعيم نفسه، يذكر لك ما يملك من عقار وأثاث، وما حققه من نجاح في ماضي حياته، وما يملك من تأثير على الآخرين، وما يملك من شهرة

أو مجد، إنه رجل الشحّ والجشع، ولذلك دعا القرآن الكريم الناس إلى نبذ هذا الطريق، دعاهم إلى اقتحام العقبة، فالجشع مثل الخنوع يورث الغباء والبلادة.

الرجل المعطاء لا يحاول تضخيم نفسه، ولا يخلع على نفسه الألقاب والأوسمة، مستعيضًا بذلك عن الكفاءة الحقيقية، إنه لا يضع حلية ليزيد من شخصيته، فهو ليس بحاجة لذلك كما قال اللّـه تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [الزخرف: ١٨].

الرجل المعطاء يتجاوب مع الآخرين بشكل عفويّ، ينسى نفسه وما يملك من معلومات أو مركز، يملك الشجاعة لإطلاق سراح نفسه على سجيتها، ومع أن عنده القدرة على الإتيان بأفكار جديدة، ولكنه يريد الحقيقة فلا يتشبث بما يملك من الأفكار؛ لأنه لا يعتقد أنه إذا تخلى عنها فقد أصبح فقيرًا، وهكذا يصبح الحوار معه طليقًا، ليس المهم من هو على صواب؛ لأنه منفتح القلب على الجميع بطيب لسانه وطلاقة وجهه، وهكذا يفترق عن صاحبه لا منتصرًا ولا مهزومًا؛ لأن حيويّته تنتقل بالعدوى إلى محاوره، إنه شخصية إيجابية يتعامل بتفهم الآخرين، ويعطي الشخص الآخر التعاطف والنشاط.

* * *

إنسانيّة الإنسان

سأل أحد الكتاب نفسه: من أنا؟

وأجاب ساخرًا: وُلدت عند تقاطع خط العرض (٤٢) مع خط طول (٦٢)، وعمري (٤٧)، وطولي (١٧٥) سم، ووزني (٧٥) كجم، وأسكن رقم (١٩) في شارع (٧٤)، بطاقتي الشخصية رقمها (٣١٨٩)، ورقم سيارتي (٨٥٤٩)، ورقم حسابي في البنك (٦٣٨١٧)، هذا هو أنا!!

ينتقد هذا الكاتب عصره الذي تحوّل كل شيء فيه إلى أرقام؛ فالأجواء المادية التي تحيط بالإنسان المعاصر تحاصره من كل مكان، من أرقام الأسهم إلى أسعار العملات والعقارات ... إنه انتقاص من إنسانية الإنسان الذي له غايته ونظرته ورسالته، وله همومه وأفراحه وأحزانه. وبسبب هذه الأجواء المادية تحوّل الإنسان إلى وحش استهلاكي، وكأنه الرضيع الكبير الذي لا يكف عن الصياح في طلب الأشياء وتكديسها، وكل استهلاك يدفع إلى المزيد من الاستهلاك وتصبح هوية الإنسان: أنا موجود بقدر ما أملك وأستهلك، وفي هذه الأجواء تُشترى الأشياء كي تُرمى، فسرعان ما يمل الإنسان من سيارته وملابسه ... وفي المجتمع (الصناعي) كل من يستطيع أن يحصل على ممتلكات أكثر يكون موضع إعجاب وتقدير.

إن سلوك المجتمع المادي يحوّل كل الموجودات إلى (أشياء)، بل تصبح هذه الأشياء هي التي تملك الإنسان كما جاء في الحديث: «تعس عبد الدينار، تعس عبد القطيفة ...»، ويتحوّل الإنسان إلى شخصية تسويقية؛ أي: يسوّق نفسه كسلعة حسب الطلب، وحسب ما تريد الشركات وأرباب العمل، فلم يعد للإنسان كيانه الخاص به، وليست الكفاءة والتأهيل كافيين للنجاح، بل يجب أن ينجح من يستطيع المباراة مع الآخرين في المظاهر (البرستيج) وقد لاحظ أحد الباحثين الازدياد الملحوظ في استخدام الأسماء في اللغة المعاصرة والتناقص في استخدام الأفعال؛ لأن الأسماء هي الرموز المناسبة للأشياء كقولك: إنني أملك منزلاً، أنا أملك سيارة، بينما الأفعال هي الرموز المناسبة للنشاط: أنا أريد، أنا أحب، أنا أكره ...

ومن اللطائف أن كلمة (الإرادة) لم تأت في القرآن الكريم إلا بصيغة الفعل، وكأن القرآن الكريم لا يعرف الإرادة إلا فعلاً وليست تجريدًا ذهنيًّا.

* * *

دمعة الرشيد

قال ابن السماك للرشيد، وقد عجب من رقته وحسن إصاخته لموعظته وسرعة دمعته على وجنته: «يا أمير المؤمنين، لتواضعك في شرفك أشرف من شرفك، وإني أظن أن دمعتك هذه قد أطفأت أودية من النار وجعلتها بردًا وسلامًا» **[أبو حيان: الإمتاع والمؤانسة]**

كلامٌ بلا معنى

يستوقفك النظر وأنت تسير في شوارع بعض المدن الصغيرة في البلاد العربية أو في عمق الريف الفقير، يستوقفك مخبز صغير تجلّلت جدرانه بالسواد من الخارج مع قلة النظافة في الداخل، ثم تقرأ اللوحة المعلقة فوقه وإذا هي: (المخبز الفرنسي)!! وكأنك تسير في شارع من شوارع باريس، وتستمر في السير، ويفاجئك متجر صغير جدًّا كُتِب فوقه (سوبر ماركت)، وعندما تتأمل هذه الأسماء التي هي كما قال الشاعر:

كالهر يحكي انتفاخًا صولة الأسد

تشعر أن هناك مشكلة، وهي أن كلامنا ليس له معنى، نكتب أو نتكلم بأشياء ليس لها واقع حقيقي، نتبجح بما ليس عندنا، ونتشبع بما ليس في أيدينا، وفي بلاد العالم الأخرى عندما يكتبون (سوبر ماركت) يكون فعلاً مخزنًا كبيرًا فيه كل ما يحتاجه المستهلك من طعام أو لباس أو حاجات منزلية ضرورية، إنهم يحترمون الكلمة.

عندما نفرض على ضيوفنا أن يأكلوا ما نشتهيه نحن لا ما يشتهون، فمعنى هذا أن الكلام عندنا لا يفيد معناه، وأن المعتذر عن أكل هذا الصنف من الطعام غير أهل للتصديق، وكأن كرمنا مشكوك فيه، هذا عدا عن أن حشْو المعدة مقدّم على كل اعتبار!! وأخشى أن تكون كل أمورنا العامة

والكبيرة على هذا النمط، كلام للزينة أو لتزويق شيء فارغ، هل هذا يدل على (عطب) في ثقافتنا وطرق تربيتنا!! ثقافة الشعراء الذين يهيمون في كل وادٍ، ويقولون ما لا يفعلون، ويمدحون فيبالغون، كلمات جوفاء يطرب لها الناس لا تفيدنا بشيء.

* * *

جمال العلم

«واعلم أن للعلم عبقة وعرفًا ينادي على صاحبه، ونورًا وضياء يشرق عليه ويدل عليه، كتاجر المسك لا يخفي مكانه، والعالم مع هذا محبوب أينما كان وكيفما كان ..»

عبد اللطيف البغدادي (الفيلسوف)

* * *

من عجائب اللغة العربية

الفتح والفلح والفجر والفلق والفرق والفتق والفري والفقأ، كلها ذات دلالات واحدة.

* * *

ولا خير الرجال سمينها [1]

نعم، ولا خير الرجال سمينها كما قال الشاعر، وهو مصداق لحديث رسول اللَّـه ﷺ: «إن بعدكم قومًا يخونون ولا يُؤتمنون، ويشهدون، ولا يُستشهدون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السِّمَن».

[رواه البخاري، كتاب الشهادات].

وهو تحذير للمسلمين من هذه الظاهرة التي تفشّت أكثر فأكثر في السنوات الأخيرة، وقد ساعد على ذلك الاختراعات الحديثة من وسائل ركوب جعلت الإنسان لا يمشي إلا قليلاً، ومن هرمونات كيماوية جعلت المواد الغذائية من الخضراوات والفواكه واللحوم متوفرة بشكل يفيض عن حاجة الإنسان، منظرها يشجع على الشراء وفائدتها قليلة، ثم المشروبات الغازية التي طمت وعمّت وخاصة عند صغار السن، ثم جاء التلفاز ليكمل المهمة، فتجلس العائلة الساعات الطوال مع هذا الجهاز، ولا بد في هذه المدة الطويلة من أكل وشرب مما خف وطاب!! والأولاد يجلسون مع أفلام

---

(١) من أبيات لأعرابي محب لصاحبته (أميمة) دارت به الأيام ملتمسًا ما يحقق أماني هذه المرأة، ثم عاد إليها شاحبًا رثًّا فأنكرته وأظهرت كأنها لا تعرفه، يقول:

رأت نِضوَ أسفارِ أميمةُ شاحبًا ... على نضو أسفارٍ فجُنّ جنونُها

فقلتُ لها: ليس الشحوبُ على الفتى ... بعارٍ ولا خير الرجالِ سمينها

الكرتون الساعات الطوال (لا مانع من رؤية تلك الأفلام ولكن باعتدال)، ولا مانع طبعًا من سماع خبر أو رؤية مناظرة مفيدة أو درس فيه علم، ولكن المشكلة في الإدمان على القنوات الفضائية، كما الإدمان على (الإنترنت)، وقد جاء في الأخبار أن العالم يشهد تحولاً في عدد الأشخاص الذين يعانون من السمنة، وأصبح عددهم أكثر من الذين يعانون من المجاعة، ولم تعد السمنة حكرًا على الأغنياء، بل انتقلت إلى الفقراء، وإلى الريف بسبب النظام الغذائي والمنتجات الحيوانية، كما جاء في التقارير أن اليابانيين مثلاً يستخدمون وسائل النقل العامة، ولا بد عندئذ من الوصول إلى أماكن عملهم مشيًا على الأقدام، ومعدّل ما يمشي الياباني في اليوم هو (٦) كم، بينما في بعض البلدان الأخرى يستخدم الإنسان سيارته الخاصة إلى مكان العمل وإلى السوق فيفقد رياضة المشي. ويُقال إن كثيرًا من الأمراض سببها (السمنة). وقد لاحظت أثناء زيارتي لبعض الأصدقاء أن أولادهم في الغالب مصابون بهذه (السمنة). وإن منظرهم ليوحي بالأسى والأسف، ترى كيف يكون حالهم عندما يكبرون؟ ولماذا هذا الإهمال من الأسرة؟ وقد حدثني طبيب مختص في الجراحات التجميلية أن ٤٠٪ من عملياته هي للنساء اللاتي يطلبن تخفيف الوزن عن طريق إزالة الدهون من الجسم. فلماذا هذه السمنة ولماذا العمليات الجراحية؟!

* * *

السيدة لا (الفارسة)

خلق اللَّـه سبحانه وتعالى الجنس البشري على الفطرة، وجعل لكل من الذكر والأنثى خصائصه الجسمية والنفسية التي يتميز بها عن الآخر، وإن كان هناك أشياء مشتركة كثيرة بينهما، هذا الاختلاف كي يكمل أحدهما الآخر، ولكن عندما يريد أحدهما تغيير خلق اللَّـه، وتغيير الفطرة التي فطر عليها، فسوف ينتكس المجتمع وتتحول المرأة عن دورها المشرف لها، وتتلبس دور (الفارسة) التي تريد السيطرة، ويتحول الرجل إلى دور (المخنث) الفاقد للرجولة، ومن هنا يتبين لنا أسباب تشديد الرسول ﷺ على من يحاول التشبه بالآخر، فلعن المتشبهات من النساء بالرجال، ولعن المتشبهين من الرجال بالنساء، ولكن المجتمعات حين تتردى وتبتعد عن الفطرة فسوف لن تكون المرأة هي السيدة المحترمة التي تعطي الرجل العواطف النبيلة الصادقة وتعطي الرجل الحب والحنان لتكتمل هذه (الزوجية)، بل المرأة التي تحب السيطرة أو التي يتلاعب بها الذين يحبون الفساد في الأرض، ويطالبون بالمساواة التامة، وعندما تبتعد المجتمعات عن شرع اللَّـه فإما أن تُحتقر المرأة ويتحول المجتمع إلى القسوة والجفاف والعقم، وإما أن تغير المرأة فطرتها وينتهي المجتمع إلى الفجور والانحلال. والمجتمع الإسلامي وحده الذي يعيد التوازن للإنسان وتنتهي بدعة (التحرر) وهي في حقيقتها (تهور).

ليس احتقارًا للمرأة حين يقال إن بينها وبين الرجل فوارق في الطبيعة أو التفكير، وحين يقال إن لها وظيفة مستقلة تغنيها عن الاشتعال بوظيفة الرجل. ولكن الذين يحتقرونها هم الذين يحسبون أنها لا شيء ما لم تكن كالرجل في كل شيء، هل الفوارق الواضحة بين الرجل والمرأة مما يتغير بقرار من الأمم المتحدة؟

إن أيسر شيء أن يجتمع هؤلاء الساسة المندوبون على ضلالة. ولماذا لا يجتمع هؤلاء المندوبون ويعترفون بالحقوق السياسية للشعوب الأخرى.

عندما تطلب المرأة المساواة التامة وتنسى ما بين النوعين في الفروق، فإنها تجعل الرجل في حالة (الترحل) لا يعرف له بيتًا يأوي إليه ولا عائلة يسكن إليها، وقد ظهرت في الآونة الأخيرة حركات نسائية في الغرب تؤصل لكراهية الرجل، فالمرأة كما تدعي هذه الحركات مستعمرة من قبل الرجل، ثم يظهر رد الفعل بحركات (رجالية) تدافع عن حقوق الرجل، وهكذا يعيشون حياة النكد والشقاء.

إن موضوع المرأة والأسرة في مجتمعاتنا يجب أن يدرس بحياد وتجرد، بل يجب أن ننتهي من مثل هذه الأمور لننتقل إلى ما هو أصعب وأعسر ولا نستمر في طرح المشكلة ثم نتركها إلى غيرها وكأنها تسلية فكرية مضيعة للوقت.

* * *

عندما يُتاجر بالإنسان ويتاجر بالعلم

من الظواهر اللافتة للانتباه تلك الدعايات والإعلانات الكثيرة التي تظهر في وسائل الإعلام، وخاصة المكتوبة منها، والتي تروج للمستشفيات الخاصة أو المراكز الصحية الخاصة؛ وذلك لجذب الزبائن وزيادة الأرباح، وكلٌّ يدّعي الأمانة والإخلاص والاهتمام الإنساني بالمريض، وكلٌّ يدّعي أن عنده من الاستشاريين ما ليس عند غيره، وإذا أراد صاحب هذا (البزنس) التهويل فإنه يعلن عن استقدام أطباء من أوروبا وأمريكا!!

ربما يظن بعض الناس أن هذا أمر عادي وطبيعي، فصاحب هذا المشروع يعلن عن بضاعته كأي تاجر عادي، ولكن فات هؤلاء أن التجارة هنا بالإنسان، ومن المؤكد أن أكثر هؤلاء التجار إن لم نقل كلهم يبتغون الربح المادي على حساب مرض الإنسان. نعم يوجد في كل بلاد العالم مستشفيات خاصة، ولكنها لا تعلن عن نفسها وكأنها شركة تجارية أو (سوبر ماركت) ويكفي إتقانها للعمل كي يذهب إليها من يستطيع دفع التكاليف، والأصل هو وجود المستشفيات العامة.

المشكلة ليست في وجود المشافي الخاصة أو المراكز الصحية الخاصة، ولكن في هذا الجشع المادي والأرباح المضاعفة على حساب الإنسان المسكين، حين يصبح مرضه فرصة لهؤلاء التجار، وعندما يضطر الفقير لدخول هذه المراكز، وتبدأ الأرقام بالمئات والألوف، يفاجأ المريض بهذه الأرقام التي لم يتوقعها، وتبدأ المساومات ومحاولات التخفيض وكأننا في سوق عقار، وحتى

على المستوى الفردي، أي الطبيب الذي يفتتح عيادة خاصة فإني أستغرب أن يعلن عن نفسه وأنه هو الأوحد في اختصاصه ولا مثيل له!

هل إذا تكلمنا عن هذا الاتجاه المادي الذي نلمسه ونراه في كل شارع من شوارعنا العربية ـ نُتَّهم بالمثالية والخيالية ويقال لنا: هكذا الدنيا، هكذا الناس، أم إن الأصل هو المبادئ والأخلاق وإتقان العمل، وهذا من أسباب النجاح في الدنيا، والمسلم يعمل للدنيا والآخرة؟

ومن الظواهر اللافتة للنظر أيضًا، ما نراه من التجارة بالعلم والوعظ والتعامل مع العلم على طريقة (البزنس)، فنجد تاجرًا أو مؤسسة تستأجر قاعة كبيرة وتستدعي أحد المشايخ المشهورين الذين يعرفهم الناس من خلال القنوات الفضائية ليلقي محاضرة في هذه القاعة، ويعلن أن تذكرة الدخول بسعر (كذا) ويربح التاجر أو المؤسسة أرباحًا طائلة من وراء هذا الشيخ.

قد يقال: إن الحاضرين استفادوا علمًا أو وعظًا، وهذا صحيح. ولكن المشكلة هي أن يتحول الشيخ إلى (نجم) يُدعى ليستفاد منه ماديًّا، ولا يُدعى إذا لم تكن هناك فائدة مادية، وهذا يعني أيضًا أن العلماء الذين هم أكثر علمًا من هذا الشيخ سيُحرم الناس من علمهم؛ لأنهم غير مشهورين (تليفزيونيًّا)، وسوف لا يسمع الناس بهم ولا يستفيدون منهم، ولكن لو قامت مؤسسة ثقافية باستدعاء العلماء أو المفكرين لإلقاء محاضرات أو دروس في المساجد وجمعت الناس على هذه الدروس لكانت الفائدة أكثر، ويبدو أن مظاهر (العولمة) حولت كل شيء إلى تجارة، وهذا طال أيضًا الدعوة والعلم مع الأسف، وأصبح العالم الكبير ليس له دور في هذا (السوق).

* * *

ما هي الحضارة؟

هل الحضارة هي الأثاث الفخم المكدّس دون حاجة إليه، وهل هي الإكثار من ألوان الطعام والشراب، أو جمع التحف لتزيين الجدران والمكان، أم هي جمع الكتب التي لا تُقرأ؟ كل هذا وأمثاله يمكن أن يُسمَّى ترفًا، أو من أمراض (ما بعد الحضارة). وذلك عندما تتغلب النظرة الشيئية ونكدِّس منتجات حضارة أخرى، عندما نكدّس السيارات الفارهة والهواتف النقالة، إنها حالة تعويض عن الشعور بالنقص، وليست هي الحضارة.

الحضارة هي تحقيق إنسانية الإنسان على أكمل الوجوه، أي تحقيق الغذاء الضروري للروح والجسم، تحقيق الهدف الذي من أجله خُلق الإنسان ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]، وإن ما نراه في التكالب على المتاع والتفاخر بالأشياء وتحوّل الإنسان ليكون عبدًا للدينار والدرهم فليس من الحضارة في شيء.

إن من أكبر المؤشرات على (حضارة) هو إنقاذ الإنسان من الأغلال، أغلال الشرك والأوهام والخرافات، وأن تُسخّر المخترعات الحديثة والتقنية الحديثة لصالح الإنسان، لا أن يكون عبدًا لها، فإن العمر طويل بالتدبير، قصير بالتبذير، ولو استعمل الإنسان أوقاته فيما ينبغي لقام بأعمال جليلة، ولئن كان البخل بالمال رذيلة، فإن البخل بالعمر فضيلة، وربما لا يرضى

الإنسان عمن يتعدى على ممتلكاته، وربما يذهب ويشتكي، ولكن الذي يسلبه وقته فإنه يشكره على مسعاه!! وعندما ينشغل الإنسان بسفاسف الأمور فإنها تجره إلى منغصات الحياة، فيضيع عمره في الشقاء والبلاء.

والحضارة هي حين يتخلق الفرد بالأخلاق التي تؤدي إلى تماسك المجتمع، وحين نرى الأسرة تربي الأجيال القادمة على الصدق والإيثار، وعلى احترام وإنصاف الآخرين، وحين نضع العدل كقيمة عليا نكون قد خطونا خطوة أساسية في التوجه نحو (حضارة).

* * *

- ما بال الناس يكرمون صاحب المال؟

• لأن عشيقهم عنده.

حوار مع الحسن البصري

البخل بالعلم

«الباخل بالعلم ألأم من الباخل بالمال؛ لأن الباخل بالمال أشفق على فناء ما بيده، والباخل بالعلم بخل بما لا يفنَى على النفقة ولا يفارقه مع البذل».

ابن حزم

العقّاد كما يراهُ الآخرون

بعض الناس يكوّن في ذهنه فكرة مسبقة عن عالم أو كاتب، ويرسم في مخيلته صورة له دون سؤال أو تحقيق ودون امتلاك معلومات صحيحة، ولكنه شيء سمعه من الناس فأدار به لسانه، ثم لا يكتفي بهذا بل ينقل هذه الصورة إلى الآخرين، وتستقر وكأنها حقيقة وإن كانت غير ذلك.

تحدث الكاتب المشهور عباس محمود العقاد عن نفسه وعن هذه الظاهرة فقال: «وعباس العقاد كما أراه ـ باختصار ـ هو شيء آخر مختلف كل الاختلاف عن الشخص الذي يراه الكثيرون من الأصدقاء أو من الأعداء، فعباس العقاد في رأي بعض الناس مع اختلاف التعبير وحسن النية هو رجل مفرط الكبرياء، مفرط القسوة والجفاء، رجل يعيش بين الكتب ولا يباشر الحياة كما يباشرها سائر الناس، رجل يملكه سلطان المنطق والتفكير ولا سلطان للعاطفة عليه، وأُقسم أن عباس العقاد هذا رجل لا أعرفه ولا رأيته ونقيض ذلك هو الأقرب للصواب ...».

وهذا الذي يشكو منه العقاد شكا منه العالم الكبير ابن حزم، قال: «وذمّني بعض من تعسف الأمور دون تحقيق بأني أضيع مالي، وإني لا أضيع منه إلاّ ما كان في حفظه نقص ديني أو إتعاب نفسي، وقد عابني بعض من غاب عن معرفة الحقائق أني لا آلم لنيل ممن نال مني ...»، ويتكلم عن عيوبه:

«كان فيّ عيوب، فلم أزل بالرياضة وباطلاعي على ما قالت الأنبياء صلوات اللَّـه عليهم أعاني مداواتها حتى أعان اللَّـه على أكثر من ذلك».

وابن حزم المعروف بشدته في مناقشة خصومه من الفقهاء حتى قيل: إن لسان ابن حزم وسيف الحجاج توآمان، ابن حزم نراه في الصورة المقابلة شديد الرقة والعاطفة الجياشة، وهو يتكلم عن النواحي الاجتماعية في شخصيته: «وإن حنيني إلى كل عهد تقدم ليغصّني بالطعام ويشرقني بالماء، ولا فارقني الإطراق والانغلاق مذ ذقت طعم فراق الأحبة ...».

وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية، الصورة الظاهرة عنه أن فيه شدة وتعتريه حدة، ولكن من يقرأ رسائله إلى والدته وإخوانه في دمشق عندما كان سجينًا في مصر، سيجدها تفيض حنانًا ورقة، وتظهر فيها نفسه الكبيرة وصدره الواسع.

ويقول كاتب هذه السطور: وقد ابتليت بشيء من هذا من بعض الناس، فأجدهم يقابلونني على الصورة التي وقرت في أذهانهم، والحقيقة هي غير ما تصوروا أو تخيّلوا.

فالواجب على المسلم أن يتحقق ويسأل، ولا تستخفّه أقوال تُلقى ليس لها زمام أو خطام سواء أكانت عن حسن نية أو غير ذلك.

وربما تكون معاودة اللقاءات إحدى الحلول لعلاج مثل هذه الظاهرة، فكأن نظر العين إلى العين يصلح القلوب كما يقول ابن حزم رحمه اللَّـه.

* * *

أقوال

- «ما صدَّ عن اللَّـه مثل طلب المحامد وطلب الرفعة».

سعيد بن الحداد

- «إن الشعب الذي لا يجد أعمالاً كبيرة يتمجد بها هو الذي تُخترع له الألفاظ الكبيرة ليتلهى بها».

الرافعي

* * *

الإنسان (السنغافوري)

سنغافورة ظاهرة اقتصادية متميزة يُضرب بها المثل في تقدمها وتنظيمها ونظافتها .. بعض الناس معجب بها، وكذلك بعض الدول والمؤسسات، وإذا أردنا أن نقوّم هذه الظاهرة من ناحية اقتصادية بحتة فلا شك أن الإيجابيات واضحة، ولكن إذا التفتنا إلى شيء آخر، إلى شيء إنساني فإننا نجد أن الإنسان هناك تحوَّل إلى (وحدة) اقتصادية قادرة على الإنتاج والاستهلاك، وعلى البيع والشراء، أي أن هذه الظاهرة شيّأت الإنسان وأصبح البلد كله مجموعة من المحلات (والسوبر ماركات) والفنادق والمصانع، والكل يصبّ في عملية الإنتاج، ولعل بعض كتب الإدارة المنتشرة بكثرة في هذه الأيام، ويُروَّج لها، ويقبل الناس عليها بشغف، لعلها تدعم هذا السياق؛ أي كيف يكون الإنتاج أكثر، وعندئذ يكون الإنسان مادة نافعة!!

لعل بعض الدول العربية الصغيرة تحاول تقليد سنغافورة، ويصبح كل شيء (بزنس)، وربما يقلدون أيضًا الظاهرة (التايلندية) التي ينتشر فيه الفساد الخلقي والبغاء إلى مواخير وتُستجلب الفتيات من مناطق معينة.

وبعض المدن (غارت) من هذه الدول المملوءة بناطحات السحاب وراحوا يقلدونها أيضًا.

نحن لا نتكلم عن النمو الاقتصادي، فهذا شيء آخر، وهو لا يأتي من السياحة غير البريئة ومن الفنادق، ولكنه يأتي من الزراعة والصناعة والتجارة، وإنما نتحدث عن المادية في النظرة إلى الإنسان.

وفي المثل العربي (تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها). فهل من العروبة في شيء أن تكون أموالنا وأعمالنا تأتي من (بزنس) السياحة غير البريئة؟!

* * *

الجنس الأبيض

«لقد أدركت أنه ليس للجنس الأبيض تلك الأهمية التي كنت أعتقد، فلو أبادت أوروبا وأمريكا نفسها في الحرب فإن هذا لا يعني فناء النوع البشري أو انتهاء المدنية، إذ سيبقى بعد ذلك عدد كبير من الصينيين ..».

براتراند رسل

أقوال

- «الضعفاء هم القساة، أما الرِّقة فلا يمكن توقعها إلا من الأقوياء». **عباس محمود العقاد**

- «ذوو النفوس الدنيئة يجدون المتعة في البحث عن أخطاء رجل عظيم». **شوبنهاور**

البحث عن السعادة

كل إنسان في هذه الحياة الدنيا ينشد السعادة ويبحث عنها، ولكن لابد من السؤال أولاً: ما هي السعادة؟ أهي الغنى بعد شدة الفقر، أم الصحة بعد المرض والقوة بعد الضعف، أم هي التخلق بالحكمة والعفة؟ هل هي تناول الشهوات، وأن يعيش الإنسان حرًّا طليقًا دون قيود، يفعل ما يحلو له، ولو كان منافيًا للخلق والدين؟ كل هذه الأمور يمكن أن تخطر ببال الإنسان؛ فالسعادة شيء حقيقي وليست وهمًا، فالعالم يسعد بعلمه، والكريم يسعد بكرمه، والمجتهد يسعد باجتهاده، ولذة هؤلاء أعظم ممن يسعد بأكله وشربه وكسبه، ولكن هل هذا هو منتهى حلم الإنسان وتطلعاته؟

فالإنسان بفطرته يتوق دائمًا إلى أشياء أخرى، يتوق إلى الأفضل أو الأجمل، ويريد الازدياد، فالغني يريد شيئًا آخر، والذي حقق فكرته يبحث عما هو أعظم، وليس هناك نهاية إلا أن يصل الإنسان إلى اللَّـه، ويطمئن إليه ويأنس بعبوديته له، وأنه معه يحفظه ويرشده، وعندما وصل عمر بن عبد العزيز إلى الخلافة، تاقت نفسه إلى شيء أسمى وأعلى، قال: «ولم يبق إلاّ الجنة».

مهما عمل الإنسان ومهما سعُد، فإن الدنيا فيها آلام وهموم يعجز عن تحملها، فإذا عمل للآخرة فعندئذ يرتاح من هذه الهموم، وليس هناك طريق آخر.

السعادة هي أن يكون للإنسان هدف سام يسعى إليه، وغاية كبيرة ورسالة يحملها ومهما أصابه في سبيلها فهو راضٍ. الثقة باللَّـه هي التي تعطي الإنسان صفاءً في النفس وهدوءًا في البال، وشجاعة في القلب؛ فلا يفرح كثيرًا بما أصاب ولا يحزن لما فقد، إننا لو نظرنا إلى وجوه الناس فسوف نلاحظ كيف تعبر عما بداخلها من الهموم، مع أن مظهرهم في لباسهم وابتسامتهم لا يدل على هذا، ولكن التنافس في اقتناء الأشياء قد أخذ جزءًا كبيرًا من اهتماماتهم، وسدّ عليهم منافذ السعادة الحقيقية، وإن من معجزات القرآن أن يصف هذه الظاهرة البارزة جدًّا في عصرنا، قال تعالى: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر: ١، ٢]، وهكذا ذهب سريعًا هذا التكاثر الذي أخذ جُلّ وقتهم حتى فاجأهم الموت.

ليست السعادة في الراحة التي يتوهمها كثير من الناس، بل السعادة في التغلب على الصعاب، ومعالجة المشاكل بنفس راضية، والتغلب على الضعف، فالخامل هو الذي لا يجد لذة العزيمة، وركوب الأخطار، هذا الخامل الذي يعيش كَلاًّ على غيره كالجنازة تُحمل على الأعناق، والسعادة في الألم الذي يعقبه انتصار، وفي الحزن الذي يأتي بعده الفرح وانشراح الصدر، وفي تسخير ما في الكون لمصلحة الإنسان، ولتحقيق إنسانية الإنسان.

* * *

مثل إنكليزي

«هناك من يقول: عن الطريقة الأسهل لقياس الشجرة هو القيام بذلك بعد سقوطها ..».

يضرب هذا المثل للعظماء
الذين لا يعرف الناس مقدارهم
إلا بعد عزلهم أو وفاتهم.

* * *

القلة والكثرة

«الشجرة لا يشينها قلة الحمل، إذا كانت ثمرتها نافعة».

* * *

أهل المدن الكبرى

لماذا هذا التأكيد في القرآن الكريم على النظر في الكون وعجائبه وجماله؟ أليس لتنبيه النفس الإنسانية إلى عظمة الخالق عندما ترى عظمة المخلوق، وليكون الإنسان منسجمًا مع هذه الطبيعة الجميلة، يتأملها ويتعاطف معها، لتعطيه انفساحًا في الفكر، وارتباطًا عاطفيًّا مع خلق اللّـه المسخر للإنسان، كما قال الرسول ﷺ عندما رأى جبل أحد: «هذا جبل يحبّنا ونحبّه»، لماذا لا يفكر الإنسان في جمال البحر والنهر، والسماء والنجوم والجبال والوديان، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ۝٤٨ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩﴾ [الذاريات: ٤٧-٤٩]، ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨﴾ [الغاشية: ١٧، ١٨]. **ويلفت نظر الإنسان إلى جمال الكون، وأنه مقصود بذاته:** ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦﴾ [النحل: ٥، ٦]، **وقوله تعالى:** ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦﴾ [الصافات: ٦].

ولكن الإنسان حين يعيش في المدن الكبيرة يفقد شيئًا فشيئًا هذا الشعور بجمال الطبيعة؛ لأنه لا يرى إلا الإسمنت والأبراج العالية، لا يرى إلاّ الحياة الاصطناعية المادية تجابهه في كل مكان يذهب إليه، يرى زينة الدنيا وبهرجها في (السوبر ماركات) والأسواق الاستهلاكية، لقد سمّمته المدن الكبيرة بدخانها وضجيجها، وربما تعوّد على هذا السم كما يتعود من يستعمل شيئًا مضرًّا لمدة طويلة. ألسنا بحاجة للبعد بين كل فترة وأخرى عن هذه المدن للعيش في أحضان الطبيعة، مع النجوم المتلألئة والليل الساجي، مع الجبال الشامخة، والأنهار المتدفقة، إننا بحاجة لذلك حتى نبتعد عن الغفلة التي تصيب الإنسان مع الحياة الرتيبة، وطول الألفة بلا تفكر ولا تذكر.

* * *

المدينة والريف

ولكن اليوم تمتص المدينة العملاقة الريف حتى الجفاف، تلتهم كل يوم كتلاً جديدة من البشر حتى يعتريها الوهن، وتموت في وسط قفر بوار في الريف، وخال من السكان.

شبنجلر: أفول الغرب

* * *

«وأنا أختار بلدة فيها عشرة مرشدين دينيين، وعشرة أدباء، وعشرة أطباء، على بلدة فيها ثلاثمئة طبيب؛ لأن الأدباء يرققون عواطفها، والمرشدون يعلمونها القصد في الأكل واللذات، ويحضونها على النظافة، فهؤلاء أطباء ولكنهم يداوون المرض قبل وقوعه، فإذا أفلت واحد داواه الأطباء المعروفون».

د. عزت شموط
في حديث له مع
الشيخ البشير الإبراهيمي
في دمشق

* * *

المادِّية الإسلاميّة

تتردَّد كثيرًا عبارة (الغرب المادي) أو المجتمع المادي في الغرب، وكأننا نحتكر نحن (الروحانيات) إذا صحّ التعبير. لا شك أن الغرب تغلب عليه الروح المادية، ولكن ليس بالذي يُتصوّر في أذهان بعض الناس، أو ما تكتبه بعض المجلات، ونحن نسمع عن بعض الغربيين الذين يتبرعون بالمليارات، وليس بالملايين لجمعيات خيرية، بغض النظر عن أهداف هذه الجمعيات.

وإذا كان الغرب هكذا فما بالنا نحن؟ هل من الإسلام احتقار المادة؟ والمادة هنا هي ما في الكون المسخر للإنسان مما يبهر العقول ويجعلها تسبح بحمد خالقها.

إن في كل ذرة من تراب أو قطرة من ماء روح يغمر القلب ليستيقظ، فلماذا لا تأخذ منا المادة جانب روعتها بعد أن أخذنا منها الجانب النفعي؟ ما المانع أن نحس بالأبعاد والأثقال والكثافات، خاصة إذا كانت تزودنا بأسرار المادة وقوانينها، ولم نستسلم للكسل والغفلة عما يأتي به العلم من جديد في عالم القوة النافعة لنا؟

كان نوح عليه السلام يتقن صناعة السفن، وكان إبراهيم عليه السلام يتقن صناعة البناء ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، وكان يوسف عليه السلام رائدًا من رواد التدبير المالي والاقتصادي، وكان داود عليه السلام

يتقن صناعة الدروع السابغات ويأكل من عمل يده ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ [سبأ: ١٠، ١١]، وقد أقام ذو القرنين سدًّا منيعًا استعمل فيه الحديد والنحاس المذاب.

الحياة المادية جديرة بأن نعيرها العناية المطلوبة، ولكن من مكانها الذي لا تتعداه إلى ما هو خير وأبقى وأحسن عاقبة، ألا وهي الآخرة. وإذا كانت الدنيا مزرعة للآخرة فلماذا لا نتقن إصلاح هذه المزرعة؟!

* * *

أقوال

- البارع في استخدام المطرقة يميل إلى الاعتقاد بأن كل شيء مسمار. **إبراهام ماسلو**

- وصف بعض النبلاء بخيلاً فقال: «هو جَلَمٌ (مقص) من حيث جئته وجدت (لا).

- السخيّ شجاع القلب والبخيل شجاع الوجه.

* * *

الأمل الإيجابي

حتى لا تضمحل شخصية الإنسان، وحتى لا يسير في طريق يقلل من مقاومته وعزيمته، لابد أن يتحلى بصفات تساعد على قوة الشخصية، كأن يمتلك الأمل الإيجابي الذي لا تزيده الخطوب إلاّ اجتهادًا وسعيًا للتغلب عليها، فهو يملك القدرة على الاستجابة لما يمر به أو يواجهه من تحديات، إنه يرسم الخطط ويطرق أبوابًا جديدة كلما انسدت أمامه الأبواب.

الأمل الإيجابي جاء في قوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ﴾ [الحديد: ٣٢]. فالاقتصاد في الحزن على ما فات، والاقتصاد في الفرح بما يناله المرء من الخير شيء ترتاح له النفس، وهذا الخُلُق يقلّ في الناس اليوم، فإما إسراف في الحزن أو غلو في إظهار الفرح، وقد أحسن الشاعر حين قال:

مُنًى إِنْ تَكُنْ تَكُنْ أَحْسَنَ الْمُنَى وَإِلَّا فَقَدْ عِشْنَا بِهَا زَمَنًا رَغدَا

الأمل الإيجابي هو أن تقوم بعمل مفيد تشغف به نفسك وتنتظر ثمرته، وهذا العمل هو الذي يحمي الإنسان من اليأس والقلق، ويفيض على النفس مشاعر النجاح والفوز.

الأمل السلبي هو كما حذر منه الرسول ﷺ: «إن لو تفتح عمل الشيطان». إنها لغة المتقاعسين حين ينتظرون التطورات لتتولى حل المشاكل وتذليل الصعاب.

الأمل السلبي هو أن يعيش الإنسان حياة فيها كثير من أوقات الفراغ؛ إذ يتبلد العقل، وتأسن الروح، ويظل الإنسان حيث هو لا يتقدم خطوة إلى الأمام، ويركن إلى ما يملك من أشياء مادية، فإذا فقدها عاش مهزومًا محسورًا.

* * *

الرجوع إلى الأصل

«يقال إذا أردت أن تشرب فاشرب من العين».

العمل والحركة

- ما دام الإنسان يجلس فلا يعرف إن كان أعرجًا أم لا.
- ما دام الإنسان ينام، فلا يعرف إن كان أعور أم لا.

شاعر من داغستان

* * *

- لأن أكون ذنبًا في الحق أحب إليّ من أن رأسًا في الباطل.

القاضي عبيد اللّـه بن الحسن العنبري

* * *

عُشّاق الكتب

ليس غريبًا على المجتمع الإسلامي أن يهتم اهتمامًا زائدًا باقتناء الكتب وإنشاء المكتبات الخاصة والعامة، فبدء الوحي كان (اقرأ)، والرحلة في طلب العلم كان من المآثر التي يعتز العالم بها. وقد ازدهرت صناعة الورق في العصر العباسي الأول، وانتقلت إلى كل العالم الإسلامي، فأصبح من السهل نسخ الكتب وبأجمل الخطوط.

وسأضرب مثالاً على الشغف بالكتاب من واقع المسلمين في الأندلس، فبعد أن استقرت الأمور في هذا القطر وأضحت قرطبة من كبرى العواصم، جذبت إليها العلماء والنابهين من الطلبة، وكان على رأس المحبين للعلم والكتاب الأسرة الحاكمة من بني أمية، واشتهر عبد الرحمن الناصر بحب الكتب؛ فأنشأ مكتبة عامرة في قصر الزهراء، وكان النساخون يقدمون الكتب إلى لجنة من كبار العلماء لمعارضتها وتصحيحها، ولكن الأمير الحكم بن عبد الرحمن فاق والده في حب الكتاب واقتنائه، وطبقًا لرواية خازن مكتبته فإنها بلغت أربعمائة ألف مجلد، ولم يُسمع في الإسلام خليفة بلغ مبلغ «الحكم» في اقتناء الكتب وإيثارها والتنويه بأهلها، وكان له ورّاقون في الأقطار الأخرى ينتخبون له غرائب المؤلفات، وقد شاع بين رعاياه أن أقصر الطرق إلى قلبه أن تقدم له كتابًا ليس في مكتبته، ولم يكن

حب «الحكم» للكتب مظهريًّا يجمعها للتفاخر والزينة، بل كان يقرؤها ويعلق عليها، وكانت تعليقاته موضع تقدير من العلماء.

ومن عشاق الكتب عبد الرحمن بن فطيس وهو من الأسر القرطبية العريقة. أمر بتشييد بناء خاص لمكتبته يستطيع الداخل أن يشاهد كل الرفوف من زاوية معينة، وكان هو نفسه عالمًا بالحديث، وله مشاركة في سائر العلوم إضافة إلى مناصبه الوزارية، وكان لا يعير كتابًا من أصوله البتة. ومن نوادر مكتبته: كتاب قصص القرآن وأسباب النزول في مئة جزء، وكتاب المصابيح في فضائل الصحابة في مئة جزء. ومنهم: قاسم بن سعدان، قيل عنه: لم يزل في نسخ ومقابلة للكتب إلى أن مات.

ولم تكن الأسر الغنية وحدها تمتلك المكتبات الكبيرة، بل شاع ذلك في كل طبقات المجتمع، فكان أحدهم يوفر من دخله القليل ليشتري الكتاب، وينشئ مكتبة في منزله.

ولم يكن عشاق الكتب من الرجال وحدهم، فقد أخذت المرأة المسلمة بحظها من ذلك، وممن اشتهرن بحب الكتب عائشة بنت أحمد بن قادم، ولم يكن في الأندلس في زمانها من يعدلها علمًا وأدبًا وعفة وحصافة. وكانت حسنة الخط تكتب المصاحف، وتُعنى بالعلم، ولها خزانة علم كبيرة.

* * *

القلم (كلانا مزارع)

«محراثك من حديد، ومحراثي من قصب، حقلك من تراب وحقلي من ورق، فكلانا مزارع، ما الفرق إلا في أنك تبذر من كفِّك وأبذر من قلبي ..».

ميخائيل نعيمة

* * *

«الكتاب الذي لم أكتبه أغلى على قلبي من كل الكتب التي كتبت، وهو أكثرها قيمة وصعوبة».

رسول حمزاتوف (داغستان)

* * *

الإنسان والبيئة

هل يدمر الإنسان البيئة التي سخرها اللَّـه له، وذلك بسبب أنانيته وجشعه وتكالبه على المال، وفي سبيل ذلك يخرب الغابات ويسمم الأجواء ويفني أممًا من الحيوانات والطيور.

هناك توازنات خلقها اللَّـه سبحانه في هذه البيئة، وهي مما تساعد الإنسان على العيش بسلام مع هذه الأرض، قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾ [الحجر: ١٩].

هذه الأرض التي تعطي خيراتها لتطعم الإنسان وتغذي جسمه، يبذر فيها البذور فتخرج نباتًا من أصناف شتى ومن كل زوج بهيج كما ذكر القرآن. ألا تستحق هذه الأرض الاهتمام بها وأن نتركها على فطرتها، هذه الغابات العظيمة في أمريكا الجنوبية وإفريقيا هي متنفس الكرة الأرضية ولكن الإنسان لم يتركها على حالها، يذهب الأمريكي إلى غابات الأمزون ويأخذ معه بعض الهدايا للقبائل هناك ثم يبدأ بقطع أثمن الأخشاب، ويرى البعض أن فقدان الأمزون مأساة كبرى تتهدد الأرض، فهذه الغابات تمتص كميات كبيرة من الكربون.

أمريكا هي الدولة الوحيدة التي لم توقع على اتفاقية منع تلوث البيئة؛ لأن الشركات الأمريكية لا يهمها الإنسان بقدر ما يهمها جمع المال من أي

مصدر كان، وإذا كان العقاب من جنس العمل فإن آثار هذا الإفساد ستظهر في حياة الإنسان حرارة وتلوثًا، والأجيال القادمة هي التي ستلقى جزاء ما فعله أجدادهم. ونحن نسمع كل يوم بمرض يظهر فجأة في منطقة من مناطق العالم، وحين تظهر هذه الأمراض لا يسأل الناس هناك أنفسهم ما هي الأسباب ولا يبحثون عن جذور البلاء، إنهم يخالفون الفطرة التي فطر اللَّـه الناس عليها.

البشر لا يحتاجون كلهم إلى فهم علم الطب، ولكن يحتاجون إلى نتائجه المفيدة لهم، يحتاجون إلى علم يساعدهم على معرفة أهمية العافية كما يحتاجون إلى علم يساعدهم على المحافظة على البيئة.

* * *

الاغتراب

سِرْ فِي بِلَادِ اللَّـهِ وَالْتَمِسِ الْغِنَى ∴ وَدَعْ الْجُلُوسَ مَعَ الْعِيَالِ مُخَيَّمَا
لَا خَيْرَ فِي حُرٍّ يُجَالِسُ حُرَّةً ∴ وَبَبِيعُ قُرْطَيْهَا إِذَا مَا أُعْدِمَا

ابن شرحبيل الكندي

«الأسفار بين بلدان العالم تزيد المسافر قدرة على معرفة أفكاره التي تعلمها في بلده، قال الشاعر الإنجليزي (كبلنج): ماذا عساك تعلم عن انكلترا إذا كنت لا تعرف إلا انكلترا». **زكي نجيب محمود**

الطفل والتربية

تحدث أحد الآباء قال: كنت في زيارة صديق لي، وإذا بضيف أتاه ومعه ولده. وكان الولد يتدخل في الحديث بصورة غريبة، فأراد صاحب الدار أن يذهب بالطفل إلى الداخل أو إلى الحديقة ليلعب، ولكن الطفل أصر على عدم الذهاب وبعناد وشراسة، وعندها قال له والده: لا تذهب، هنا انقلب الوضع وقال الولد: سأذهب، وفرح الوالد بهذا الانتصار، وفسر ذلك بأن الولد عنيد، فإذا أردنا منه شيئًا قلنا له عكس ما نريده ظاهرًا ليفعل ما نريده حقيقة.

الوالد مرتاح لهذه الطريقة، ولكنه لم يعلم أنه بعمله هذا يساعد على العصيان والمخالفة، ويخسر جميع الغايات البعيدة التي يريدها في تربيته، الوالد يرتاح إلى النتيجة غير أن الولد ينظر إلى الأمر من زاوية مختلفة، فهو يرى أن والده رضخ لإرادته. ترى ماذا سيكون هذا الولد عندما يكبر ويخالط الناس؟

يذهب الوالد مع طفله إلى حديقة الحيوانات، فلما وقفا أمام النمر سأل الطفل أباه: لماذا أحاطوا النمر بقضبان الحديد؟ أجاب الأب: لأنه مفترس شرير. لقد أخطأ هذا الأب حين أجاب بجملة ليس لها معنى، فالنمر حيوان خلقه اللّـه ذا طبع مغروز في جبلته، يهاجم ويدافع ليحصل على طعامه، فهو من الحيوانات المفترسة ولكنه ليس شريرًا.

يقول الشيخ محمد عبده حول تربية الطفل:

«انظروا إلى المرأة حين تقول لابنها مثلا: إذا أرادت أن تمنحه شيئًا، خذ هذا واخفه عن الأعين حتى لا يراك أخوك، فكم نقيصة علمته بهذا القول، عملته خصال هن الموبقات: الأثرة، الدناءة، وإذا أنكر ما أعطته أمه إذا سأله أخوه فقد علمته أقبح خصال السوء وهو الكذب»[1].

إن من أفضل الأخلاق التي يجب أن يتربى عليها الطفل هو خُلق الصدق، فإذا نجحت هذه التربية في غرس هذه الفضيلة فإنه سيستعمل كل علم يحصل عليه في النفع العام، إن الصدق من أهم الفضائل الأخلاقية وهو أساس الإيمان كما أن الكذب أساس النفاق الذي يبنى عليه، والقرآن يقول: إن الكاذب تتنزل عليه الشياطين، قال تعالى: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٢٢٢﴾[الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢].

* * *

«أعدل الشهود على المطبوع على الصدق وَجهُهُ؛ لظهور الاسترابة عليه إن وقع في كِذْبة أو همَّ بها. وأعدل الشهود على الكذاب لسانه؛ لاضطرابه ونقض بعض كلامه بعضًا».

ابن حزم

* * *

(١) الأعمال الكاملة ١٥٨/ ٣.

ألهاكم التكاثر

في نواحي حياتنا اليوم أصبح السلطان للمال؛ فهو المعيار، وهو الذي يُسخَّر له ذكاء الإنسان. كل شيء يُقاس بالكثرة والمال، وبعد أن كان الإنسان ثريًّا لأنه قوي أصبح قويًّا لأنه ثري. الشركات الكبرى هي التي تحرك السياسة، والمطلوب من الدولة أن تخضع للاقتصاد.

تحدّث المسلم النمساوي محمد أسد (ليوبولد فايس سابقًا) عن المجتمع الغربي وعن قصة إسلامه، قال: كنت مسافرًا في سنة ١٩٢٦ في قطار برلين تحت الأرض، وكان معي زوجتي وهي رسامة وذكية جدًّا، وقد لاحظت أن كل زملائي في هذه الدرجة (درجة أولى) مكتئبون، تعلو وجوههم كآبة ويغشاها قتام، وكان ما يحملونه من متاع ويلبسونه من ملابس ويتحلّون به من خواتم يدل على أنهم من الطبقة الثرية، وكان الزمن زمن الرخاء الذي أعقب سنوات التضخم في أوروبا، فأنا تحيّرت وفكّرت وقلت: لماذا هذه الكآبة؟ وما سبب هذا الحزن العميق الذي هم غارقون فيه؟ ولفتُّ نظر زوجتي وقلت: يا عزيزتي، انظري وجوه هؤلاء القوم!! ألا تشعرين بأنهم تعلوهم الكآبة؟ قالت: نعم، إنهم جميعًا يبدون وكأنهم يعانون آلام الجحيم!!

وأردت أن أفسر هذه الظاهرة فلم أنجح، ورجعت إلى مكتبي فإذا المصحف أمامي، فأخذته من غير قصد، وفتحت من غير اختيار فإذا سورة التكاثر تطالعني، حيث يقول اللَّـه تبارك وتعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، وكنت مترددًا: هل أدخل في الإسلام أو لا أزال أشرحه وأعرضه بالأسلوب العلمي العصري كما كان شأني؟ ولما قرأت هذه السورة قلت: واللَّـه إن هذا الكلام لا يأتي به إلاّ من ينزل عليه الوحي!! هذا الكلام لا يقوله بشر قبل ثلاثة عشر قرنًا، إنه يصور المجتمع الغربي المعاصر الراقي بقسماته ومخايله، ويتنبأ بالعذاب النفسي الذي يتميز به هذا القرن العشرين على الرغم من رقيه الصناعي والحضاري، ويعيّن مصدر هذا العذاب والشقاء الذي كان يعانيه ركاب القطار، ويعانيه المجتمع الأوروبي بشكل عام وهو داء التكاثر لا غير، فمن ساعتي خرجت إلى صديق لي مسلم هندي وقلت: يا أخي، ماذا يفعل من يريد أن يدخل في الإسلام؟

قال: يقول: أشهد أن لا إله إلا اللَّـه وأن محمدًا رسول اللَّـه.

فنطقت بالشهادتين وأصبحت مسلمًا.

* * *

أين تعلمت هذه الكتابة

تلقى أحد الأدباء رسالة كتبت بخط رديء، فكتب لمرسلها ساخرًا:

أحد حروفك طبل ممزق، والنقطة داخله بلاطة ثقيلة، والآخر حوش انهار سقفه، فلم يبق إلا عمود يسند بقاياه، قل لي: كيف استطعت أن تحمله هذا الجلمود الثقيل.

كل سطر منك يشغل صفحة كاملة، كشجرة ممتدة الأغصان وعملت فيها فؤوس الحطابين.

عجيب: أين تعلمت هذه الكتابة؟!

* * *

فرَّ زيتون من الجبن

قال خليل أيبك الصفدي في (الغيث المسجم في شرح لامية العجم): كتب القاضي محيي الدين عبد اللَّـه بن الظاهر: لما التقى الملك الظاهر مع (زيتون الفرنجي) قريبًا من عكا، هرب زيتون وأُسر غالب من كان معه من الفرنج، فجاء في مجلة الكتاب: وفَرّ زيتون من الجبن.

* * *

الرياضة الصحية

لا أحد يعترض على ممارسة الرياضة الجسمية التي تعني القوة والنشاط وقضاء الفراغ فيما يفيد، بل هذا مطلوب شرعًا فالمؤمن القوي (بكل أنواع القوة) خير من المؤمن الضعيف، والتحريض على أنواع الرياضة مثل السباحة والرماية وركوب الخيل معروف مشهور.

الرياضة متعة حسية حتى يبتعد الإنسان عن الكسل والترهل، ولكن بشرط ألا تتحول إلى هوس وجنون يذهب بالأوقات والأموال ويغري بالتحزبات التي لا طائل من ورائها.

إن الشباب في الغرب في هذه الأيام يهربون من انتماء إلى انتماء آخر، وأصبح الانتماء إلى ناد أو التعلق بلاعب مشهور إن هو إلا تعويض عن شيء مفقود، كحمل رسالة أوالتطلع إلى هدف سام أو هو من قبيل الرفض لمجتمعاتهم، والألعاب الأوليمبية ما هي إلا رمز للوثنية الغربية، فهم يحتفلون بالبطل ويمجدون الأقوى كما كان يفعل أجدادهم من الرومان برياضة المصارعة التي تنتهي بموت أحد المتصارعين!!

هنا أمور كثيرة وكبيرة يجب أن يقوم بها الشباب، فأين العلم وأين المواهب التي يجب أن تطور، بل وأين القلب غير المقتنع بما آل إليه أمرنا. إن ابتعاد الشباب عن معالي الأمور، وتمضية الفراغ بأشياء لا تسمن ولا تغني من جوع إن هو إلا تلف لحياتهم وتلف لعقولهم.

وإذا كان أفلاطون، وهو فيلسوف وثني من قبل ألفي سنة يطلب رقابة صارمة على الموسيقى خوفًا من أن يصاب المواطن بالضعف وينغمس في العواطف الفاسدة، فهل يليق بالشباب المسلم الانغماس بالترف واللهو غير السائغ.

إن حمل الأهداف العظيمة، وإتقان هوايات مفيدة والقيام بالخدمات العامة والاجتماعية، إن هذا مما يساعد النفس على الانشراح والشعور الإيجابي.

* * *

أقوال

- الأولاد لا يفهمون عذاب الآباء، ما داموا هم أنفسهم لم يأتوا بأولاد.
- إن الإنسان في حاجة إلى عامين ليتعلم الكلام، وإلى ستين عامًا ليتعلم الصمت.
- إذا أطلقت نيران مسدسك على الماضي أطلق المستقبل نيران مدافعه عليك.

* * *

توجيه المال

لا يخفى ما للمال من أهمية في هذا العصر، حيث التزاحم والتنافس، وحيث التحديات التي تواجه المسلمين، مثل مشاريع الباطنية والصهيونية الأمريكية، فمن يتصدى لها؟ لابد من تعاون فئتين: أهل العلم وأهل المال.

القرآن الكريم لا يحط من شأن المال، ويذكر الرغبة عند البشر في حب المال: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۝١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠﴾ [الفجر: ١٩، ٢٠]، ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، القرآن يذكر هذه الفطرة الإنسانية بخيرها إذا رشدت وشرها إذا انحرفت.

ليست المشكلة في نقص المال، فقد حبا اللّـه المسلمين المال الوفير، ولكن في معرفة أهمية المال وحفظه وإنفاقه في الوجوه الصحيحة والوجوه التي تتصدر الأولويات. وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء: ٥].

والحديث ليس عن الذين ينفقون أموالهم في التوافه وفيما حرم اللّـه، أو الذين ينفقونها على الكماليات، ولكن عن أهل الخير الذين يملكون المال ولا يبخلون به، ويحبون مساعدة الآخرين والإنفاق في وجوه البر والخير.

هؤلاء الذين التبس عليهم الأمر، فليس عندهم القدرة على معرفة الأولويات في الإنفاق، هل المشاريع العلمية والدعوية لها الأولوية؟ هل المؤسسات ذات النفع العام كالمستشفيات والمدارس والمكتبات لها الأولوية؟ هل يتم الإنفاق على طفل مسلم ليكون في المستقبل من بناة هذه الأمة أو على الشباب الأذكياء ليقوموا بفروض الكفاية من تعلم شتى الاختصاصات التي نحتاجها؟ أم أن الإنفاق محصور في حفر بئر وإطعام مسكين ومساعدة فقير، وهذه الأمور الأخيرة وإن كانت مهمة ولكن يمكن الجمع بينها وبين ما هو أهم.

إن المال إذا لم يكن هناك ما يحميه فسيذهب ويستولي عليه غيرنا، كما يروى أنه عندما أطلع قارون صولون على أمواله قال له صولون: يا سيدي لو جاء شخص لديه من الحديد أكثر مما عندك فإنه سيستولي على هذا الذهب.

إن أغنياء الغرب ينفقون أموالهم لتأسيس الجامعات ومراكز البحوث والدراسات، وإذا كنا لا نستطيع حل مشكلة الأمراض بالإرشادات الصحية وحدها فكذلك لا تحل مشكلة التنمية عند المسلمين بالصدقات وحدها بل بإنشاء المؤسسات التي تستفيد من الطاقات وتنميها، فالمشكلة عندنا ليست مشكلة مالية، بل مشكلة حضارية نفسية، وأعني بذلك: أين نضع المال، والمال كالسماد لا ينفع إلا إذا فُرِد وبُسِط.

* * *

المساواة

الذين لا يعلمون طبيعة الإنسان وحكمة الخالق في الخلق، أو يعلمون ولكنهم يكابرون لغايات في أنفسهم هؤلاء ينادون بالمساواة بين الرجل والمرأة مساواة تامة، وهو شعار جذاب قد يقع الناس في حبائله وهم لا يدرون، مع أن كل العقلاء والمنصفين من علماء النفس أو الاجتماع أو الطب يقولون أن هناك اختلافًا بين الرجل والمرأة في أمور بيولوجية ونفسية وعقلية وهذا لا يعني هضمًا للمرأة ومحاولة إضعاف مكانتها التي تستحقها، بل إن المساواة التامة هو الهضم والظلم لها لأنه تغيير لطبيعتها وقدراتها، وكل إنسان ميسر لما خلق له، والأصل هو التكامل والتعاون على تكاليف الحياة، والدعوة إلى المساواة ستؤدي إلى التنافر والصراع الدائم، ولابد للبشرية - كي تتعافى - من تنازلات وقبول بما يظنون أنه مخالف للمساواة.

إن شعار المساواة المطلقة، سواء بين الرجل والمرأة أو في غير ذلك من شئون الحياة هو مبدأ يعارض أصل خلقة البشر التي جاءت لتظهر التفاوت في المواهب والطاقات وهو شيء غير منطقي وغير معقول، فهل نساوي بين الأذكياء والأغبياء، وهل نساوي الحكماء بالمتهورين والفصحاء بالعييء، وهل نساوي المجرمين بالمصلحين، أم هل نسوي الأرض فيتساوى السهل والجبل؟!

نعم هناك مساواة في الإنسانية والكرامة الإنسانية وإن أقصى ما يتمناه المصلحون المساواة في العدالة والأحكام القضائية، وفرص التعلم، وفرص العمل حيث يتاح للجميع تطوير القدرات ولكن المساواة القانونية لا تلغي الفوارق الطبيعية فحرية الصغير لا تجعله في صف الكبير، والداعون إلى المساواة في المال هم أحرص الناس على التملك والتكاثر والصحيح هو القضاء على الترف السفيه والفقر المذل، وقد فاضل اللَّـه سبحانه وتعالى بين الأنبياء والرسل ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وفضل أمكنة معينة (مكة والمدينة والقدس) فهل يكون عند ساكني الأماكن الأخرى حساسية من ذلك، وإذا تأملنا في جسم الإنسان هل غرض الشَّعر والظُّفر مثل غرض السمع والبصر؟

إن الفوارق بين الرجل والمرأة أزلية أبدية اقتضتها الحكمة التي تفي بما تتطلبه عمارة هذا العالم القائمة على تقسيم الأعمال، وكل مجتمع يحاول إلغاء الفوارق الواضحة، فمصيره إلى الاضطراب والفساد، ومن الخطر مساواة المرأة والرجل في كل شيء؛ لأن المرأة نفسها لن تسعد بذلك، ولأن سعادتها وكمالها تكمنان في الأمومة.

إن الغربيين حين يلحون على مثل هذه الشعارات وهم لا يطبقونها في بلادهم يعلمون في قرارة أنفسهم أنها غير واقعية، ولكن لا مانع من تصديرها إلى العالم الإسلامي.

* * *

القناعة

«لوموا أمة اجتزأت بالقليل وقنعت من دهرها بالدون، وأنامها (قتلها) هذا القول الخبيث الأفيوني: القناعة كنز لا يفنى».

محمد إسعاف النشاشيبي

* * *

«إن الحق لا ينقلب باطلاً لاختلاف الناس فيه، ولا الباطل يصير حقًّا لاتفاق الناس عليه».

أبو الحسن العامري

* * *

الظاهر والباطن

عندما ندرس شخصية الإنسان فإننا سنلاحظ العلاقة القوية بين الظاهر والباطن، فإذا كان باطن الإنسان نقيًّا طاهرًا ليس فيه شوائب الحقد والحسد أو الأنانية والكبر، فإن هذا يظهر في وجهه ونظراته وسلوكه، فإذا رأينا مسلمًا يقلد الكفار في بعض المظاهر التافهة التي لا تمت إلى ثقافة الإسلام بصلة فإننا نعلم أن في قلبه مرض الهزيمة الحضارية. وإذا رأينا شابًّا يلبس القبعة الأمريكية ويضع في يده أسورة وفي عنقه سلسلة، أو شابة تلبس الضيق وتتبع آخر (تقليعة) في اللباس الذي لا يليق بمسلمة، فماذا نقول عن هؤلاء؟ لا شك أنهم في هزيمة نفسية. الأصل هو القلب، والإسلام يهتم بهذا الأصل اهتمامًا كبيرًا؛ لأنه إذا صلح صلح الظاهر، الصلاة مثلاً تجمع بين الظاهر والباطن، فهي خشوع وخضوع وتوجه إلى اللَّـه، وهي قراءة وركوع وسجود، ويسبقها طهارة حسية.

قد تلبس المرأة لباسًا شرعيًّا في الظاهر، ولكن إذا كان في قلبها مرض فإنها تحب في داخلها إظهار زينتها وتتصرف وكأن إظهار هذه الزينة جاءت بغير قصد منها، وكأن سببه هبوب ريح مثلاً هذا عدا عن طريقة المشي والحركات والكلام أو طريقة الصعود إلى السيارة مثلا، ورغبتها أن يرى

الرجال شيئًا منها، فهل يكفي التستر الخارجي رغم وجوبه وهو مطلوب لذاته. إذا لم تكن المسلمة متسترة داخليًّا تعلم ما معنى العفة والطهر وتعلم ما معنى ألا تكون فتنة للناس، وإذا لم تكن كذلك فهناك ألف وسيلة لتظهر من زينتها التي حرم اللَّـه عليها إظهارها، والشيطان يوسوس لها ويزين لها. ونحن وإن كان لنا الظاهر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يتعلق بالظاهر، لكن الحديث هنا عن المسلمات المؤمنات، فقد تضعف إحداهن أمام الهجوم المتكرر على الحجاب والستر وكثرة الذين يلوكون الكلام عن (تحرير المرأة) وكثرة الضغوط التي تمارس بشكل صريح أو بشكل ضمني، وهذه الضغوط قد تأتي من الأقارب ومن الأباعد، والقنوات الفضائية المشبوهة لا تقصر في ذلك، والأمل هو في المسلمة الحرة التي تفقه دينها وتصمد أمام التحديات.

* * *

المرأة الكريمة

في اللغة: عقيلة هي المرأة الكريمة، والعقيلة: درَّة الصدف، والخريدة: كثيرة الحياء الخَفِرة.

وتسمى المرأة: بيتًا، والعرب تكنّي عن المرأة باللؤلؤة والنخلة والقوارير، والريحانة.

* * *

الاستهلاك

اقرئي قول اللَّـه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧﴾ [الفرقان: ٦٧].

فهذه الحالة الوسط وصفها سبحانه وتعالى بأنها: قوامًا، إنها قوام الحياة الاقتصادية للمسلم والأسرة المسلمة، فالإنسان المسرف الذي ينفق أمواله في الترف والكماليات، أو في حب الظهور والشهرة سيقعد بعد ذلك ملومًا محسورًا، والذي يقتر في معيشته سيكون هو وأسرته ومن حوله في نكد وضيق.

كل إنسان لابد أن يأكل ويشرب ويلبس ويأوي إلى مسكن ولكن الغالب في هذه الأيام الإسراف، فأصحاب المصانع والإنتاج الرأسمالي يريدون من الإنسان أن يتحول إلى وحش استهلاكي، يشتري ثم يشتري وكل يوم يخترعون أصنافًا جديدة، وتقوم دعاية جديدة والناس تؤثر فيهم الدعايات (والغواني يغرهن الثناء)، ثم يبدأ الاستهلاك، وتفرغ الجيوب هنا وتمتلئ هناك، إنها الشركات التي لا ترحم البشر، بل همها أن تجمع الملايين على حساب الملايين، إنه استهلاك مؤسس على فراغ الروح وتعظيم الأشياء

وقتل الوقت، بعض الناس يفتحون الثلاجة دون أن يكون عندهم رغبة في الأكل، ولكنهم يأكلون ويشربون وكأنه قرص مهدئ، وكأنه هروب من الملل فالإنسان الخامل الذي يظن أنه قليل الأهمية يتعلق بالأشياء كي تملأ حياته.

هل تكون المرأة المسلمة ممن يساعد هؤلاء الذين يأكلون السحت ولا يشبعون، هل يصبح التسوق والشراء هو الهم الأكبر والعادة اليومية، هل ننساق وراء هذا المرض المستشري، فإننا نرى بين كل فترة وأخرى أسواقًا جديدة تفتح، ويبدأ هجوم الناس عليها، لعل فيها ما ليس في غيرها، أليس هناك أوجه أخرى للإنفاق إذا كان الإنسان يملك فوق حاجاته الضرورية، إن المال وسيلة فعالة في مقاومة الشر، وقد استفاد الرسول ﷺ في دعوته من مال السيدة خديجة رضي اللَّـه عنها ومن مال أبي بكر وعثمان رضي اللَّـه عنهما، وآفاق العمل كثيرة والحمد للَّـه.

* * *

«هل لهذا من نهاية؟ إلى متى نظل نشتري الأشياء من الخارج إلى متى نظل نشتري الثياب الجاهزة والمظلات والمناديل من اليابان؟ لو بقيت الحال على هذه الغفلة سيحضر الغسالون من (كابل) وتحضر الأكفان أيضًا من اليابان».

محمد إقبال

* * *

لماذا هذا الاهتمام ؟

هل أتاك نبأ هذا الاهتمام العالمي بالمرأة؟ وهذا الاهتمام الغربي بالمرأة المسلمة خاصة، لماذا هذا التركيز على المرأة المسلمة؟ ألأنها مظلومة أم يغارون عليها ويهتمون بمصلحتها ويريدون راحتها وسعادتها وإنصافها؟

كل هذا لا يكون أبدًا .. فمتى كان الغرب يريد خيرًا بالمسلمين؟! إذن لا بد أن يكون في الأمر شيء مريب، وأن يكون وراء الأكمة ما وراءها حتى وصل الأمر أن يتكلم رؤساؤهم عن المرأة المسلمة ولم يتكلموا عن الظلم الذي ألحقوه بالمسلمين وفي كل يوم وفي أنحاء الكرة الأرضية .. من فلسطين إلى العراق، وكثير من أقطار العالم الإسلامي.

إن سبب هذا الاهتمام مكشوف ومعروف، فالغرب لا يتصور أن يكون في العالم حضارة أو ثقافة تقابل ثقافته وحضارته، فكيف إذا كان أهل الحضارة الإسلامية يرون أنهم هم الأعلى؟! هذا أمر لا يحتمله الغرب، وهو يعلم أن من أسباب تماسك المسلمين هو تماسك الأسرة، وتماسك الأسرة راجع إلى استقامة المرأة وتمسكها بدينها وحجابها، وبتربية أولادها على الفضيلة والأخلاق، والحياة الأسرية القوية تؤدي إلى بناء الأمة القوية، فإذا استطاع الأعداء فك هذا الارتباط ووسوسوا للمرأة أن تتفلت من القيود

ـ بزعمهم ـ وخرجت للشارع والمقهى والنادي فسد المجتمع وكثر الفحش وأصبح كمجتمعاتهم، لا فرق، ولسان حالهم يقول: لماذا هذا الطهر؟ ولماذا هذا الستر وهذا الاستعلاء الإيماني؟ إنهم يقولون كما قال سلفهم في وصفهم لحال المؤمنين (إنهم أناس يتطهرون).. هذه هي القضية، وهذه تداعياتها.

إنها معركة طويلة لم يبدأها الغرب الآن، وإن زادت حدتها هذه الأيام لازدياد قوته وغطرسته، إنها معركة بدأت من عشرات السنين حين رمت الحجاب امرأة في إحدى الدول العربية ثم تتابعت الأمور في البقية وقالوا للنساء: يجب أن تتحرروا .. والتحرر عندهم مرادف لازدياد التكشف والعري، وثقافة العري عند الغرب موروث يوناني روماني، وهذا ما نلاحظه في الآثار التي تركوها فيما يسمى فن النحت، حيث تكثر التماثيل العارية .. ولم يتوقفوا عند موضوع الحجاب، بل أصبح الحديث عن تغيير أحكام اللَّـه في الزواج والطلاق والميراث.

هل تبين الآن جذور المسألة؟ ولماذا تعقد الندوات والمؤتمرات، ولماذا تمتلئ أعمدة الصحف الغربية وزميلاتها العربية بالدعوة إلى التكشف والاختلاط والبروز. كانت الأمهات المسلمات إلى عهد قريب وهُنَّ أقرب إلى الأمية يلدن الرجال، وهذا خير من العالمات اللاتي يلدن أبناء لا يعرفون دينهم ولا أمتهم.

إن صمود المرأة المسلمة هو الصخرة التي سوف تتحطم عندها أمواج الذين يبغون الفساد في الأرض.

* * *

بنت المحاملي

«العالمة الفقيهة المفتية، أمة الواحد بنت الحسين بن إسماعيل (القاضي الإمام المحدث) تفقهت بأبيها وروت عنه، وحفظت القرآن والفقه الشافعي وأتقنت الفرائض والعربية، واسمها (سُتَيْتَة) قال البرقاني: كانت تفتي مع أبي علي بن أبي هريرة، وروى عنها الحسن بن محمد الخلال». **سير أعلام النبلاء ١٥/ ٢٦٤**

* * *

حمل الرسالة

لا شكَّ أنَّ البعض يعاني من الفراغ، فالساعات تمرّ والأيام تمرّ وليس وراء ذلك غير الضجر، فكيف نقطع الوقت، وكيف نستفيد من الوقت؟ إنَّها قضية كبرى وقضية عامة؛ فالوقت لا بدَّ أن يُملأ بشيء مفيد وشيء حسن، فقد يُملأ بالتفاهات والسخافات، بل بما لا يحمد عقباه، مثل الاكتئاب الذي هو من أمراض هذا العصر.

ما الدواء لهذا، وما العلاج؟ يقول علماء التربية وعلماء النفس: إنَّ أول خطوة في سبيل الحل هي الإحساس بالمشكلة، أن نشعر أنَّ هناك مشكلة فعلية وخطيرة، وأمَّا العلاج فليس هناك إلا علاج واحد، وهو أن يحمل الإنسان رسالة في الحياة، أن يحمل غاية سامية، أن يحمل همًّا يقيمه ويعقده ولا يرتاح حتى يعمل لتحقيقه، وإنَّ أعظم رسالة يحملها الإنسان هي رسالة الإسلام، علمًا وعملاً وتبليغًا للنَّاس. وإنَّ هذا الدين يسر ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧].

المسلمة التي تحمل همّ القرآن لن تشعر بالفراغ أبدًا، بل تتمنى مزيدًا من الوقت لتقوم بالواجبات، وهل يليق بالمسلمة أن تكون تطلعاتها مادية بحتة،

تتأوه وتتحسَّر كلما رأت شيئًا من زخارف الدنيا، كلما رأت سيارة فارهة أو (فيلا) واسعة، أو محلات ملابس لأرقى الأزياء الأوروبية؟.. هل تقول: (يا ليت لنا مثل قارون)؟ وإذا كان الإسلام يجمع بين الدين والدنيا، فلا ينبغي أن يكون المسلم أبدًا عبدًا للأثاث والرياش.

إنَّ من مميزات الإسلام الفريدة؛ أنَّ اللَّـه بعث محمدًا ﷺ بخاتم الرسالات، وهيَّأ له جيلاً كاملاً يحمل الرسالة، أمة إسلامية وسطًا، يقول أحد أفرادها: ابتعثنا اللَّـه لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة اللَّـه، فلم يكن لنبي قبله مثل هذا الجيل ومثل هذه الأمة، نحن أمَّة تحمل رسالة، لها مركز خطير بين الأمم والشعوب، وليس حمل الرسالة حكرًا على جيل دون جيل، ولا على الرجال دون النساء، فقد كانت السيدة خديجة رضي اللَّـه عنها أول من أسلم، وكانت سميَّة أمّ عمار أول شهيدة في الإسلام، وتاريخ الإسلام حافل بأسماء العالمات كالسيدة كريمة المروزية (٣٦٥ – ٤٦٣هـ)، كانت تروي صحيح البخاري، قال ابن الأثير: «انتهى إليها علو الإسناد للصحيح، ويقال لها: أمّ الكرام، وبنت الكرام».

ارجعي ـ اختي المسلمة ـ إلى كتب التراجم، فسترين حشدًا كبيرًا من النساء اللائي حملن رسالة الإسلام.

* * *

هكذا يفعل الغرب

في حديثه مع الشيخ رشيد رضا قال أحد زعماء النصارى في طرابلس الشام، وكان قنصلاً لروسيا وألمانيا: «إن في الإسلام فضائل كالجبال أو أشمخ وأرسخ، ولكنكم دفنتموها حتى لا تكاد تعرف أو ترى، ونحن عندنا شيء قليل ضئيل ككلمة (حب اللّـه والقريب) فما زلنا نمطه ونمده ونقول: الفضائل المسيحية حتى ملأ الدنيا كلها».

* * *

الهوية

إن الأمم القوية وإن ضعفت عسكريًّا أو اقتصاديًّا إلا أنها تحتفظ بشخصيتها وهويتها، هكذا كانت حالة المسلمين عندما استباح أرضهم التتار، ولكنهم ظلوا محتفظين بحضارتهم معتزين بثقافتهم، ثم ما لبث التتار أن أسلموا ودخلوا في هذه الحضارة.

بعض السلمين اليوم مهزومون ثقافيًّا، قد فتك بهم هذا الداء الوبيل وهو التقليد الأعمى للغرب، وأعني تقليدهم فيما يخالف هدي الإسلام من العادات والشرائع. إنه داء يذهب بروح الأمة ويضعف المجتمعات. هل نضخم من هذا المرض والأمر ليس بهذه الخطورة بل هو أيسر من ذلك؟ الحقيقة أنه أمر كبير؛ لأنه يدل على الهزيمة الداخلية بل هو من علامات الانهيار؛ لأنه إعجاب بما عندهم وتنقيص لما عندنا، فعندما تزدري المسلمة ثقافتها فهو الخطر الذي نخشاه. الإسلام صبغنا بصبغته الخاصة، فنحن كمسلمين لنا ذوقنا الخاص وطرائقنا الخاصة في المنزل والشارع وفي اللباس والأكل والشرب والمنتزه واللهو المباح.

إن أعداء الإسلام يموتون غيظًا من هذا التميز، كيف لا يندمج المسلم مع الآخرين اندماجًا كاملاً، ولذلك جاءت هذه الحملات المركزة في

الفضائيات والمجلات وعروض الأزياء، والمسلسلات في الفضائيات العربية تظهر الأسرة وكأنها مقطوعة الصلة بالإسلام. فكلمة السلام عليكم تعتبر متخلفة ولابد أن يقال: (باي) و(هاي) و(good morning) أليس هذا هو الاستلاب العقلي؟ وفي السوق يستورد كل شيء دون رقيب أو حسيب وحتى أن المرأة المسلمة لا تجد ما يناسب ذوقها ولا الشيء المناسب لأطفالها، فهل نرضخ لهذا الهجوم الاستهلاكي؟

إنني لا أُضَيِّق واسعًا ولا أحب التشدد؛ لأني أعلم أن هناك أشياء مشتركة بين البشر وتصلح لكل البشر سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين، ولكن الذي عنده ذوق إسلامي لابد أن ينفر من محاولات الآخرين فرض ذوقهم عليه، وهو لا يأخذ هذا المنتج أو ذاك دون تمحيص أو نظر. أتكون الهندوسيات حين يلبس لباسهن التقليدي أحرص على ثقافتهن من حرص المسلمات على تميزهن ودينهن؟

إن مجال الحياة الذي يسمح به الإسلام واسع جدًّا ولكن ضمن حدود حدّها ورسمها، وقد حذر الرسول ﷺ من هذا الداء حين قال: «لتتبعن سنن من كان قبلكم حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه».

* * *

شاعرة وكاتبة

حمدة بنت زياد بن تقي العوفي، شاعرة، كاتبة أندلسية، من سكان وادي آشي قرب غرناطة، قال صاحب الإحاطة: إن حمدة وأختًا لها اسمها زينب كانتا شاعرتين أديبتين من أهل المال والمعارف والصون. ووصفها صاحب (الفوات) بأنها من المتأدبات المصونات العفيفات. **الأعلام ٢/ ٢٧٤**

* * *

أقوال

- الحب والكراهية: كلاهما طاقة ثمينة لا يصح أن نبددهما فيمن لا يستحق.

- ليس من يصغي للحق بأصغر ممن ينطق بالحق.

* * *

ضبط الغرائز وحمل المسئولية

الإسلام دين الفطرة، بل هو الفطرة نفسها، فعندما ينهى الدين عن شيء أو يذمه (مثل نهيه عن الغضب)، فليس مقصوده اقتلاع هذه الغريزة من أصلها أو إهمالها إهمالاً تامًّا، أو تعطيل ما ينشأ عنها من فوائد، ولكن غرضه تصريف هذا الشيء لجهة الحق جهد المستطاع، فإن إزالة قوة الغضب تفقد الإنسان الانتصار للحق والدفاع عن الحرمات، بل تجعله بليدًا، كما أن الغضب الشديد الذي لا يضبطه ضابط يؤدي بالإنسان إلى المهالك.

عالج الإسلام هذه الغريزة بأن حولها لتكون في سبيل الحق، والغضب للَّـه ولدينه، مثل (مانعة الصواعق) تستقبل التيار ثم تحوله عن هدفه الأول أو تخفف من ضرره، ولم يقل الرسول ﷺ للرجل الذي يغضب: اسكت أو احبس أنفاسك بل طلب منه أن يتعوذ باللَّـه من الشيطان الرجيم، فهذه الكلمة تفتح صمام المرجل الذي يغلي في الصدر.

وهكذا الحال في بقية الغرائز التي إذا ضبطت أتت بالنفع والخير، وإذا تركت للهوى ووسوسة النفس والشيطان دمرت الإنسان، فالجنس كما يقول

الكاتب الغربي «ول ديورانت»: «نهر من النار يجب أن تقام له السدود ويُهدّأ بمئات القيود هذا إلى أردنا ألا يدمر المجتمع»[1].

الإسلام لم يكبت الغريزة الجنسية؛ لأنها شيء طبيعي في الإنسان، ولكنه هذبها وصرفها إلى ما يفيد الإنسان والبشرية، وهي سكن النفس المتبادل بين الرجل والمرأة وبقاء النوع الإنساني، وقد راعى الإسلام الآفات التي تصاحب طور الشباب، فندب إلى الزواج وحض عليه، وسماه إحصانًا وشرع له من الأحكام ما هو أقرب إلى التيسير ليحفظ على الشاب والشابة دينهما، ويضبط عواطفهما، فلا تهفو النفس إلى المحظور بل إن أكبر خدمة للأمة أن يتزوج الشباب حتى يصبح لهم عرض يحامون عنه، وأولاد يوسعون الآمال، ثم إنهم يتدربون على تحمل المسئوليات.

*** أيها الشباب:**

إن سيدنا يوسف عليه السلام هو مثال حي عالٍ أمامكم، إنه الشاب الوسيم البعيد عن الأهل والوطن تتصدى له امرأة ذات منصب وجمال، ولكنه يتعفف ويصبر ويلجأ إلى اللَّـه. وقد سمى اللَّـه سورة يوسف: أحسن القصص. ليس الإسلام دينًا يقهر النفس، بل يترك مجالاً واسعًا لكي تترقى هذه النفس في ميولها، والإسلام لا يؤجل هذا الترقي إلى ما بعد إماتة الشهوات الجسدية، بل يصرف هذه الشهوات نفسها لمصلحة الدين والدنيا.

* * *

(١) دروس التاريخ: ٧٧.

الشهادات

إن سن الشباب هو سن انطلاق الحياة في سبيل الاكتمال بلا وقوف ولا ركود. إنها سن الاقتحام دون جفل ولا تهيب، الشباب في كل أمة وفي جميع العصور هم الدم المجدد لحياتها، الناقل لخصائصها، وهو الامتداد الصحيح لتاريخها، وإذا لم يقوموا بهذه المهمة فإنهم سيتركون أمتهم وراء الأمم.

لماذا يسعى الشباب إلى إحراز الشهادات ولو عن طريق الغش والخداع وهو سعي جاهل؛ لأن هذه الشهادة ليست إلا ورقة، وإذا لم يكن في صدرك ـ أيها الشاب ـ علم فإنها ستظل حبرًا على ورق لا تدب الحياة فيها إلا بك وبعلمك! لا تخدع نفسك فإذا لم تكن راغبًا في هذه الدراسات الطويلة في المعاهد والجامعات، فيمكنك أن تخدم أمتك في أشياء كثيرة، فرُبّ صاحب مهنة حاذق فيها خير من متعلم جاهل.

أسلوب الشهادات أن يحفظ الطلاب ما في الكتب ثم يجتازون الامتحان بنجاح، ولكن المحتوى لا يصبح جزءًا من نظامهم الفكري، وفي هذه الحالة فإن الطالب لا يفكر في أن يبتكر أو ينتج شيئًا جديدًا، وهذا يؤدي مع الزمن إلى السقوط في الخمول والبلادة، ولا يرفع الإنسان من هذا التردي إلا الهمة العالية التي تنهض بالضعيف فيكون قويًّا بإذن اللَّـه.

وإذا كانت الحياة صعبة فإننا من خلال التحديات نتغلب على الصعاب. وإن التعب في سبيل الوصول إلى معالي الأمور هو كالدواء الذي يتجرعه المريض ليتخلص من ألم لا يطاق.

أيها الشاب، احرص على العلم لوجه اللّـه ثم لخدمة أمتك ووطنك، ولا تحمل (شهادة زور).

* * *

كلمات

الإنسان والحرية

الإنسان كالنبات لا يزهو إلا بهواء هو العدل، ونور هو الحرية، وماء هو العلم، وتربة هي حد أدنى من الرخاء يحول بين الإنسان والفقر المدقع الذي يقطع السبيل على كل تقدم. **حسين مؤنس: الحضارة ١٤٣**

الرضا

ضَلَّ مَنْ يَحْسَبُ الرِّضَا عَنْ هَوَانٍ ∴ أَوْ يَرَاهُ عَلَى النِّفَاقِ دَلِيلَا
فَالرِّضَا قُدْرَةٌ عَلَى النَّفْسِ وَالسَّا ∴ خِطُ يَحْيَا لِلنَّفْسِ عَبْدًا ذَلِيلَا
وَالرِّضَا نِعْمَةٌ مِنَ اللَّـهِ لَمْ يَسْـ ∴ ـعَدْ بِهَا الْعِبَادُ إِلَّا قَلِيلَا

في الجامعة

إذا كنت تتعلم أيها الشاب في جامعات الغرب، فكن كالطير الذي يلتقط الحبة ويفلت من الصياد، وكن كسيدنا إبراهيم عليه السلام، حين أُخرج من النار، وكانت بردًا وسلامًا عليه.

خذ العلم وكل ما يفيدك ويفيد الأمة، ولكن احذر من هذه المادية التي تلف المجتمع الغربي، ومن هذه الشكوك التي يبثونها حول الدين، وكأنهم وثنيون في داخلهم، قد أعمى بصائرهم هذا التقدم العلمي وهذه الهيمنة على العالم. إن طرائقهم في التدسس والدخول إلى عقل الطالب، وطرائقهم في بث الشبهات، كالحامض الذي يذيب شخصية الكائن الحي، بل إن هذا الحامض أشد قوة وتأثيرًا من أي مادة كيميائية.

قد يعاني بعض الشباب من صراع داخلي في أنفسهم، حين يرون في الغرب مناهج بحث وعلم وجامعات متقدمة واهتمام بالطلبة، ومن جهة أخرى يرون كثيرًا من مظاهر التخلف التي تحيط بالعالم الإسلامي وهو تخلف في كل المجالات: العلمية والسياسية والاقتصادية، إن هذا الصراع علامة إيجابية؛ لأنه دليل على النفس التواقة المتشوقة لحل هذه المعادلة، وهذا يعني أنهم مازالوا يحتفظون بعقيدتهم وقناعاتهم، ولكن النفس تسعى للوصول إلى

درجة اليقين، وهذا القلق علامة إيجابية عندما يكون البحث عن الحق بطرق علمية صحيحة، وبنفس هادئة تسأل وتناقش سؤال المتعلم لا سؤال المتعنت.

هؤلاء الشباب المتعلم في الجامعات والذين يجمعون بين العقيدة السليمة والعقل المتفتح هم الذين لا تستطيع فلسفة هدامة أو دعوى منحرفة أن تبعدهم عن الطريق الصحيح، هم الذين لا يرضون أن يبيعوا ضمائرهم مهما غلا الثمن، هم الذين تُعقد عليهم الآمال في تغيير الواقع بالعلم النافع والإيمان الصادق. والعلم النافع يؤثر كما أثرت عصى موسى عليه السلام في الحجر، فانفجر منه الماء.

تعلم أيها الشباب ما تشاء أن تتعلم من فنون العلم حيث تخدم أمتك، خذ العلم من أي مكان ولكن مع الاعتزاز بالنفس والاعتداد بدينك وحضارتك، ولا تكن واهن القلب مكسور الجناح.

* * *

النفس التواقة

قال عمر بن عبد العزيز: إن لي نفس تواقعة، وإنها لم تعط من الدنيا شيئًا إلا تاقت إلى ما هو أفضل منه، فلما أُعطيت ما لا أفضل منه في الدنيا (الخلافة) تاقت إلى ما هو أفضل وهو الجنة.

* * *

بين الشباب والشيوخ

كثيرًا ما يتردد في الكتابات المعاصرة المقابلة بين ثنائيات، وكأنها أضداد أو كأنها خطان متوازيان لا يلتقيان، مثل: القديم والحديث، الأصالة والمعاصرة الشباب والشيوخ ... والحقيقة أن الأمر أيسر مما يتوهم البعض أن هناك صراعًا بين الشباب والشيوخ، ولماذا لا يكون الأصل هو التعاون بين الجيلين، وأن يعرف كل واحد منهما كيف ينتفع بالآخر، وكل حسب استعداده وخبرته ونشاطه، وإذا كان شيوخ اليوم هم شباب الأمس، وشباب اليوم هم شيوخ الغد، فما الفائدة من التلاوم والشكوى؟!

الشباب أقدر على التنفيذ، ويتحملون في تسيير الأعمال وإدارتها فوق طاقتهم، ويميلون إلى الحركة أكثر من الميل إلى الهدوء، ويسارعون إلى النتائج بغير تفكير في الوسائل.. والشيوخ المتقدمون في السن، ربما يعترضون كثيرًا، ويتشاورون طويلاً، ويخاطرون قليلاً، فمن الخير إدماج العقليتين، واستخدام الجانبين، ومن الخير تمحيص الأفكار الجديدة وغربلتها بحكمة الشيوخ وخبرتهم، وهذا مما يمهد للابتكار.

لا معنى لأن يكون هناك صراع بين جيلين وكأنهما خصمان، والأصغر منهما تجربة، ينازل الأكبر خبرة وتجربة، ولا معنى لأن يضمر الشباب الإزراء والاستهانة بمن هم أكبر سنًّا، بل عليهم أن يأخذوا بأيدي الشيوخ ويكونوا

عضدًا لهم حين تنقص الأخيرين الحماسة المطلوبة. الكل يعترف أن الشباب في كل أمة هم الامتداد الصحيح لتاريخها والحاملون لخصائصها، وأن حيوية الأمم إنما تقاس بما يبذل أفرادها، وما يمنحها شبابها من جهد، فلا معنى لأن تذهب الأوقات والأيام في صراعات ومشاحنات لا خير فيها ولا فائدة منها، والأمة بحاجة في هذه الظروف إلى تعاون الجميع.

* * *

العدد الكبير

عندما نذكر بفخر عددنا الكبير[1]، والذي ينمو بشكل هائل، فإن هذا بالنسبة لي يشبه الإنسان الذي يفخر بسمنته وعدد الكيلوجرامات التي يملكها. متى سنبدأ بالإعلان عن عقلنا وتطورنا، ففي ثنايا الرجل الصغير يمكن أن تكون روح كبيرة أين هي قوانا وعلومنا وآدابنا؟ أين مساهماتنا وإبداعاتنا من أجل الخير العام؟

الرئيس علي عزت بيكوفتش

* * *

(١) يقصد عدد المسلمين في العالم.

عاداتنا السيئة

هناك عادات ألفناها لكثرة ما تكررت في حياتنا، وهي تمر وكأنها طبيعية، تمر دون إنكار أو استهجان ودون ملاحظة آثارها السلبية، ومن أمثلة ذلك:

١- عندما يصلح لك عامل أو صاحب مهنة شيئًا في المنزل ولا يتقنه، فالعادة أن يقال لك: إنه شيء بسيط لا يستحق أن تكدر خاطرك لأجله، ومعنى هذا أن العطل الذي تشكو منه مستمر، والمشكلة أن هذه الطريقة في الإهمال و(تمشية الحال) تحدث أيضًا في القضايا الكبيرة، ويقال: إنه شيء بسيط. فنحن لا نعالج قضايانا بالإصلاح والتقويم، بل بالمغالطة والترقيع.

٢- عندما تطلب من إنسان عملاً أو جهدًا، يبدأ التسويف والمواعيد الكاذبة وهدر الوقت، وسيقال لك: لماذا العجلة، وهل هناك داع لذلك؟ وهل حصل من التأخير ضرر؟ إنهم ينكرون عليك شدة الاهتمام بإنجاز العمل لوقته ولا ينكرون التأخير والتسويف وكأنه هو الأصل.

٣- ربما نبدأ بعمل جيد ومفيد ولكننا لا نكمله وننصرف إلى غيره، وهذا من الوهن، حتى لو كان الانصراف إلى عمل جيد مثله، وقد قيل: إن الشيطان ليقنع من الإنسان بإخراجه من عمل حسن إلى عمل آخر حسن مثله، وذلك حتى لا تكتمل الجهود ولا نرى نتائج أعمالنا، وكما قال المتنبي:

ولم أر في عيوب الناس شيئًا ∴ كنقص القادرين على التمام

٤- أسلوب المبالغة الذي تعود عليه بعض الناس، المبالغة في الأقوال والكتابات، كالإفراط في استعمال أدوات التفضيل والتشدق بالأوصاف والتهويل، فنسمع كلمات مثل: الشعب البطل، أحد العمالقة، أمر خطير جدًّا، كل الدنيا تعلم ذلك ... إلخ.

٥- حب المظاهر الفارغة، أحد الدكاترة الباحثين يضع على بطاقته تحت اسمه: المرشح لجائزة نوبل، ذلك لمجرد أنه أرسل كتابًا إلى اللجنة الأكاديمية السويدية وتلقى إشعارًا بوصول ذلك الكتاب!

هل نستطيع التخلص من هذه العادات التي تنغص حياتنا الاجتماعية، وتذهب بالأوقات وتلجئنا إلى المجاملات التي ليس وراءها طائل؟

* * *

أقوال

- للرجل العظيم قلبان: قلب يتألم وقلب يتأمل.
- يحتاج الحق إلى رجلين: واحد لينطق به والآخر ليفهمه.
- وإنما افتقر الشرقيون لأنهم يخافون الفقر، وماتوا لأنهم يخافون الموت.

* * *

الصداقة والألفة

المؤمن يألف ويؤلف، إنها حاجة نفسية، خاصة عندما تطغى الجوانب المادية على المجتمعات، وتضعف العلاقات الاجتماعية، ويبتعد الناس عن بعضهم إما إهمالاً لهذا الشأن الكبير أو بسبب اتساع المدن ظهور الاختراعات الحديثة (التلفاز والقنوات الفضائية والإنترنت).

عندما أزور بعض العواصم العربية، ويأتي بعض الإخوة للسلام، يقول أحدهم مخاطبًا البقية: الحمد للّـه لقد رأيناكم بمجيء فلان، وأشعر من هذا العتاب الرقيق أن الصلات متباعدة، فقد تمر السنة أو السنتان ولا يسأل الأخ عن أخيه.

هل عانى عالِمنا الكبير ابن حزم في أندلسه، وقد دبت فيه الفتن الداخلية والخارجية مثل ما نعاني اليوم، فيكتب في الألفة والصداقة ويشكو من تغير المعارف رغم حساسيته الشديدة في الحفاظ على العهود والوفاء لكل من لقيه أو حادثه ولو ساعة من نهار، يقول: «جبلت على طبيعتين لا يهنأني معهما عيش، وإني لأبرم بحياتي باجتماعهما، وهما: وفاء لا يشوبه تلون، قد استوت فيه الحضرة والمغيب، وعزة نفس لا تقر على الضيم، مهتمة لأقل ما يرد عليها من تغير المعارف، وإني لأُجْفى فأحتمل، وأستعمل الأناة والتلوّم الذي لا يكاد يطيقه أحد».

ويكتب في رسالة (الأخلاق والسير): «اللقاء يذهب بالسخائم، فكأن نظر العين إلى العين يصلح القلوب ..». إنه رحمه اللّـه حريص على الصداقة والأخوة مع أنه لا يقبل الضيم ولا أن يسيء إليه أحد.

إن المسلم لا ينسى حديث رسول اللَّـه ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق». إنه شيء نفسي اجتماعي، فما المانع من المديح في الوقت المناسب، والإطراء الذي يستحقه الأخ، فإن هذا يبعث في النفوس الرقيقة تأثيرًا يشبه تأثير أشعة الشمس فوق منظر كئيب.

يقول أحدهم لصديقه: لو كنت أعلم أنك أكبر مني بيوم ما تقدمتك. ويروي محمد بن مناذر: كنت أمشي مع الخليل بن أحمد، فانقطع شسعي[1]، فخلع نعله، فقلت: ما تصنع؟ قال: أواسيك في الحفاء. وعن مطرف بن عبد اللَّـه الشّخير أنه قال لبعض إخوانه: «يا أبا فلان، إذا كانت لك حاجة فلا تكلمني واكتبها في رقعة، فإني أكره أن أرى في وجهك ذُلَّ السؤال».

وللمحافظة على عقد الأخوة والصداقة فلا مانع من العتاب أحيانًا لتصفو القلوب، ولكن الكاتب أحمد حسن الزيات لا يرى العتاب «والصديق يسؤوني فلا أبتئس، وإنما أحمل إساءته على أثرته، فإذا عاد إلى الإحسان فلا أعاتبه على ما كان، وأي نفع أرتجيه من تعكير ما راق، وإشعال ما خمد».

في المجتمعات التي غلب عليها الطابع المادي يقول الإنسان: لا أحد يهتم بي وأنا لا أهتم بأحد، ولكن في المجتمع الإسلامي نقول كما جاء في الحديث: «لا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف»[2].

* * *

(١) سير النعل.

(٢) الألباني: صحيح الجامع الصغير ٢/ ٦٦٦١.

ثورة المعلومات

عندما يتقدم الإنسان في بعض أموره الدنيوية بسبب تقدم العلم والمخترعات الحديثة، فإنه في الوقت نفسه ربما يخسر أشياء من راحته وصحته وأموره الاجتماعية.

جاءت الثورة الصناعية وقدمت للإنسان خدمات كثيرة، وخففت عنه أعباء جسيمة، وكثر إنتاج المواد التي يحتاجها الإنسان، وتطور بعدئذ العلم والتكنولوجيا تطورًا هائلاً، ولكن بعض هذا التطور أفسد البيئة الطبيعية، تلوث الجو، وتلوثت البحار، وزاد عدد المستشفيات، وزاد عدد الأطباء النفسانيين، ثم جاءت ثورة المعلومات فأفادت كثيرًا، أفادت الباحثين والعلماء ومراكز العلم وكل ما يمت إلى المعرفة بصلة، ولكن لها جوانب سلبية ينبغي الحذر منها، ألا يجدر بنا ملاحظة نوع المعلومات المتدفقة علينا من كل مكان ومن خلال (الإنترنت) والإعلام المرئي، إن عقل الإنسان لابد أن ينشغل بالمعلومة سواء كانت جيدة أو تافهة، وكم أشغلت القنوات الفضائية الناس بقضايا ليس لها أي أهمية، والسؤال المطروح أيضًا: هل كل زيادة في المعلومات فيها النفع والخير؟ أم أن المعلومات التي نتلقاها هي أكثر مما نحتاجه، والإنسان له قدرة محدودة، ولابد أن يهضم المعلومة ويفهمها، وليست القضية هي تكديس المعلومات التي تنوء بحملها الذاكرة.

إن بعض المعلومات مشبعة بثقافة الأمة التي أنتجتها، وربما يكون هذا مناقضًا لثقافتنا وهويتنا، وقد تعوذ الرسول ﷺ من علم لا ينفع.

إن بعض هذه المعلومات يصور الفساد وكأنه واقع يجب أن نتقبله، هناك سيل من الأدب الهابط الذي يدغدغ الغرائز، وسيل من ثقافة الاستهلاك، فهل نفرح بهذا ونعتبره من حسنات هذا العصر؟

إننا بحاجة إلى تنظيم المعرفة، وإدارة المعرفة حتى تظهر الحقائق أمام هذا الخلط واللبس، ولا أعتقد أن دور العالم ودور المربي أو الكاتب قد انتهى.

* * *

أقوال

- يطلقون على الدنيا: المعمورة، ثم يواصلون تخريبها.
- عندما يصيب الركود البحيرات الواسعة تتحول إلى برك ومستنقعات.
- الحكمة: فهمك لكيفية تطبيق وربط مختلف الأجزاء والمبادئ.

* * *

القراءة

كتبت في حلقة سابقة عن الكتاب، وكيف اهتم المسلمون به اهتمامًا بالغًا في قرون الحضارة الإسلامية، وكيف أُنشِئت المكتبات العامة والخاصة في مدن هذه الحضارة.

ولكن ماذا عن القراءة والتعود عليها منذ الصغر كما تفعل بعض الأمم اليوم التي تهتم بالفرد وبالعلم فينشأ الفرد ميالاً بطبيعته إلى حب الاطلاع والاستزادة من العلم. وذلك عن طريق مكتبة الفصل والمدرسة والحي والمدينة، إنه التعود على القراءة، قد يقرأ أشياء بسيطة أو قصص خرافية ولكنه في المستقبل سيقرأ أشياء مفيدة، والشعوب التي تلم بأطراف من المعرفة يتمكن الفرد فيها من المشاركة في الأمور الهامة، وإبداء الرأي فيها. كتب المؤرخ البريطاني (ماكولي): «لو جعلني إنسان أعظم ملوك الأرض، وحباني بالقصور والحدائق، وقدم لي أحسن ألوان الأطعمة، وأفخر الثياب على شريطة ألا أقرأ الكتب لما قبلت ولآثرت أن أكون رجلاً فقيرًا أسكن في غرفة واحدة وعندي مجموعة وافرة من الكتب».

ضعف الاهتمام بالقراءة من الكتاب في السنوات الأخيرة، وانصرفت همم كثيرة من الناس والشباب إلى ما أفرزته التقنية الحديثة من سرعة وصول المعلومة والمقالة، والأصل ألا يكون تعارض بين الكتاب وبين المستجدات

الحديثة، ولكن الواقع غير ذلك. ومن العوامل التي ساعدت أيضًا على ضعف القراءة من الكتاب هو كثرة الكتب في الموضوع الواحد المكرر، حيث لا فكرة جديدة وإنما تكديس للعناوين، فهذا مما يربك القارئ ويجعل الاختيار صعبًا. وربما يجدر بالقارئ هنا أن يسأل أهل العلم والخبرة عن أفضل الكتب ومع الزمن القصير يتكون عند هذا القارئ ملكة النقد ومعرفة الجيد من الرديء، وعلى شريطة ألا يحمل القارئ فكرة مسبقة تمنعه من اقتناء الكتاب الجيد أو يكون صاحب هوى يصده عن الانتفاع بالكتاب الجيد.

* * *

- «أنا رجل أقرأ كثيرًا جدًّا، والكتب تملأ حياتي، وأنا أحس أحيانًا أنني كتاب، وأنني واحد من كتب مكتبتي».

حسين مؤنس

- ما صد عن اللَّـه مثل طلب المحامد وطلب الرفعة.

سعيد بن الحداد

* * *

الرحلة في طلب العلم

شغف المسلمون في أوج حضارتهم بالكتاب والقراءة، وهذا مما جعلهم يرحلون في طلب العلم مع تكبد المشاق والمعاناة الشديدة، لملاقاة العلماء والتزود بما عندهم، والحديث هنا ليس حبًّا في الافتخار أوا لتغني بأمجاد الماضي، ولكنه من باب التذكير والتحفيز للهمم وإعطاء صورة لطالب العلم اليوم، لعلّ هذا مما يزيده حرصًا واستفادة، خاصة ما تلاحظه هذه الأيام من ضعف الطلب، وقلة القراءة.

ومن الأمثلة على حب العلم والرحلة إليه: ما قام به أبو زكريا يحيى المعروف بالخطيب التبريزي، فقد حصلت له نسخة من كتاب (التهذيب في اللغة) لأبي منصور الأزهري في عدة مجلدات، فجعل هذا الكتاب في مخلاة وحملها على كتفه متوجهًا إلى بلدة معرة النعمان في بلاد الشام لملاقاة أبي العلاء المعري، وليسأله عن بعض المسائل في اللغة. ولم يكن له ما يستأجره من مركوب، فنفذ العرق إلى الكتاب وأثر فيه، والمسافة من تبريز إلى المعرة مسافة طويلة، قطعها أبو زكريا سيرًا على الأقدام.

وهذا أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبري، رحل في طلب الحديث من الشام إلى العراق والحجاز واليمن ومصر، وأقام في الرحلة ثلاثًا وثلاثين سنة، وسمع الكثير وعدد شيوخه ألف شيخ. قال ابن خلدون: «والرحلة لا بد

منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال».

يدهشك في هذه الحضارة عدد طلبة العلم، وعدد المدرسين، وعدد حوانيت الوراقين، فقد ذكر اليعقوبي أنه وجد في بغداد أكثر من مئة حانوت للوراقين، ويحضر في حلقة إمام الحرمين الجويني أربعمائة طالب، يقول ابن حوقل أنه وجد في مدينة (بلرم)[1] ثلاثمائة معلم، فإذا كان هذا عدد المعلمين فكم يكون عدد الطلبة. ويذكر ابن جبير في رحلته لمدينة الإسكندرية يقول: ومن مناقب هذا البلد المدارس الموضوعة لأهل الطلب الذين يفدون من الأقطار النائية، فيلقى كل واحد منهم مسكنًا وإجراءًا يقوم بجميع أحواله، وحمامات يستحمون فيها إذا احتاجوا إلى ذلك، ومارستانًا (مستشفى) لعلاج من يمرض منهم، وخدامًا ينظرون في مصالحهم، وقد كان في دمشق:

٧ دور للقرآن الكريم، ١٩ دارًا للحديث، ٥٩ مدرسة للشافعية، ٤٥ مدرسة للحنفية، ١١ مدرسة للحنبلية، ٣ مدارس للطب.

والحديث يطول عن هذا الاهتمام بالعلم وطلبه، ولاشك أن أجواء الحضارة الإسلامية التي أوجدها القرآن الكريم هي الباعثة على هذا الحرص مع النية الخالصة لنفع الأمة.

* * *

(١) مدينة في جزيرة صقلية.

البيروقراطية

(الفيل الأبيض الذي ينبغي قتله)

ربما تكون أغلبية الناس ليست على وعي تام بحجم المأساة وحجم الدمار النفسي، وحجم إهدار الوقت وإهدار إنسانية الفرد الذي تمارسه البيروقراطية في الدوائر الحكومية.

لماذا يتلذذ الموظف بتعذيب المواطن ويقول له: تعال غدًا أو بعد غد أو بعد شهر، وكل هذا من قبيل الكسل واللامبالاة وعدم المسئولية الأخلاقية.

الموظف في الأسلوب البيروقراطي يدير شئون البشر وكأنهم مجرد أشياء، إنه يحول الكائنات البشرية إلى أرقام، يرتكب أفعالاً في غاية القسوة ولكن ضميره مرتاح لأنه ـ كما يزعم ـ ينفذ الأوامر ويقوم بواجبه، إنه يخشى المدراء الذين يحملون عقولاً صغيرة، وحتى لا يحملونه المسئولية فهو يحتمي وراء اللوائح والقوانين، التي تتميز بالمركزية الصارمة، والتي تدس أنفها في كل شيء.

إن هذا الروتين القاتل، وهذه اللوائح المركزية تجعل الموظف متعنتًا صلفًا ليس في قلبه رحمة، فالبيروقراطي في المستشفى يرفض استقبال مريض، مع أنه في حالة الخطر؛ لأن اللوائح لا تنص على السماح لأمثاله!!

البيرقراطي الاجتماعي يمكن أن يترك إنسانًا يموت جوعًا؛ لأنه لا يريد أن يُفَرِّط في تنفيذ اللوائح. ومن طرائف البيرقراطية أن العالم المصري أحمد

زويل الذي نبغ في أمريكا، يتسلم رسالة من الجامعة التي كان يعمل بها في مصر تنذره بالعودة وإلا اتُّخِذ بحقه إجراءات الفصل؟!

إن الشعوب العربية تعاني الويلات والعذاب من الدوائر الحكومية، فهل تتفضل الحكومات وتريح المواطن قليلاً كي يتفرغ لواجباته ولما هو أهم من جانب آخر إن على الشعوب أن تزداد معرفة واقتدارًا كي تدرأ فساد هذا (الروتين) وهذه (البيرقراطية)؟

* * *

أقوال

«الإدارة هي الكفاءة في تسلق سلم النجاح، والقيادة تحدد ما إذا كان السلم يرتكز على الجدار الصحيح».

ستيفن كوفي

الصحافة

ولا يقتل النبوغ شيء كالعمل في هذه الصحافة بطريقتها، فإن أساس النبوغ ودأبه العمق في أسرار الأشياء وإخراج الثمرة الصغيرة من مثل الشجرة الكبيرة. أما هذه (الصحافة) فأساسها ودأبها السرعة والتصفح وصناعة كصناعة العنوان لا غير.

مصطفى صادق الرافعي

* * *

شباب الجسم وشباب العقل

لا شك أن هناك تأثير متبادل بين صحة الجسم وصحة العقل، ولكن هذا ليس دائمًا، فهناك من يتمتع بشباب جسمي وهو منحدر في مهاوي الشيخوخة العقلية، وأما العكس وهو التمتع بشباب عقلي متوقد مع ضعف الجسم فهذا موجود وملاحظ.

إن بعض الشباب اليوم تدركهم الشيخوخة أسرع مما أدركت أجدادهم، وليس عندهم القدرة على مواجهة الصعاب وأعباء الحياة، وذلك بسبب ضعف الإيمان والرجاء باللَّـه سبحانه وتعالى، ولعدم وجود أهداف سامية يسعى الشاب لها، تحدد له هويته وطريقه، وتنمي فيها شخصيته، ويبتعد بها عن الاهتمامات الفارغة والثقافة الضحلة الآتية من التلفزة وتصفح الجرائد وقراءة كتب التسلية، ويبتعد بها عن الاهتمامات الموزعة بين نجوم الفن أو نجوم الكرة.

وإذا كان هناك غذاء للجسم الكل يعرفه ويعرف تفاصيله أو يسأل الخبراء والأطباء عنه وعن طب الأعشاب والطب البديل، فهناك غذاء للعقل والروح يجب أن نتعلمه للتغلب على المشاكل التي تواجهنا.

الإيمان باللَّـه هو حياة النفوس؛ حيث تنسجم قوى الإنسان ولا تتفرق أجزاء، ولا تتساقط متهافتة، ولا تضطرب أمام الأهوال أو أمام المطامع والرغبة في تملك الأشياء ولو على حساب المبادئ والقيم.

الإيمان باللَّـه يملأ النفس قوة وطاقة تذلل العقبات، ويملأ النفس إلفة ووئامًا، حيث تدرك الحق والخير وتنفر عن الباطل والشر.

بعض الشباب وبسبب الإحباط أو رد الفعل على الواقع وعدم وجود طريق واضح في الحياة، هؤلاء أصبح همهم الأول هو الرفض لكل ما هو قديم ولو كان هو الحق، ولو كان تراثًا أنتجته أكبر العقول وأفضلها، وهذا الرفض لا ينفعهم شيئًا، بل هو أقرب للعبث، بينما نجد أن الشخصيات الكبيرة سواء في الماضي القريب أو البعيد كانوا قادرين على البحث في القضايا الكبرى، قضايا الحياة وأين تكمن مصلحة الإنسان في هذه الحياة الدنيا، وذلك بسبب معارفهم الواسعة واطلاعهم على الكتب العظيمة.

إن ظهور التخصصات الشديدة التركيز على موضوعات معينة وتجزئة المعرفة قد أضر بالثقافة التي تساعد على اجتراح الحلول وتكوّن البيئة الاجتماعية التي تساعد الشاب على أن يخط طريقه بنجاح. ما المانع أن يحمل الشباب واجب الاهتمام بشئون الأمة والمشاركة في العمل العام، ولا يبتعدون ـ كما هو ملاحظ ـ عن الفعل السياسي الذي يسعى لحفظ الدين وحفظ الأوطان أن تقع في براثن الاستعمار أو الاستبداد ولا أعني السياسة الجوفاء التي هي كالنار تدفئ مجلسك وتحرق ملابسك، ولكنها السياسة التي تسعى لكرامة الأمة واستقلالها.

الشباب بحاجة إلى قراءات واسعة كي يتعرفوا على إمكاناتهم وقدراتهم.

* * *

عبرة

بعد وفاة الأستاذ إحسان عباس الأكاديمي والكاتب والمحقق المعروف كتب الصحفي رشاد أبو شاور متحدثًا عن أيامه الأخيرة وهو في قبضة المرض متنقلاً بين المستشفى والمنزل، قال: «كنت أزوره باستمرار أنا وصديقي الدكتور إبراهيم خليل، وعلى غير عادته كان يردد كلامًا في ظاهره يأس مطبق، وفي جوهره صدى لحكمة (أبي العلاء): ما أهمية كل ما فعلته؟ ما أهمية الكتب والرسائل والتحقيقات؟ ويتابع أبو شاور: ما الذي أراد أستاذنا إحسان عباس أن يحققه ولم يتمكن من تحقيقه؟ هو أستاذ أكاديمي، درّس في أعظم الجامعات، وأشرف على مئات الرسائل، وتخرج من بين يديه أساتذة كبار، ونقاد وشعراء، ووزراء، ومُنح أكبر الجوائز العربية، ماذا أراد حقًّا؟ طال احتضاره وغرقه في حالة من التأمل والاستنكاف عن الحياة التي يبدو أنه أرادها على غير ما كانت، أو ربما لأنه رآها على حقيقتها: باطل الأباطيل ..»[1].

لم أطلع على تفاصيل حياة الأستاذ إحسان عباس، وإن قرأت له وخاصة تحقيقاته لرسائل ابن حزم، ولا يستحق الآن إلا أن ندعو له بالرحمة، ولكن

---

(١) القدس العربي ٣/ ٨/ ٢٠٠٣.

كلام أبو شاور يوحي بأن الأستاذ وجد أخيرًا أن كل هذا المجد العلمي لا ينفع إذا لم يكن كله للَّـه، وأن يكون صاحب هذا العلم يحمل رسالة تنفع في الآخرة. وأما قوله: أو ربما لأنه رآها باطل الأباطيل، فهذا صحيح، فهي باطل الأباطيل إذا لم تكن مزرعة للآخرة، وإذا لم يكن العمل فيها في سبيل اللَّـه، وباطلة على من عشقها وهام في زخارفها وغفل عن الآخرة.

ولا نتمنى أن يكون الأستاذ إحسان عباس مثل أبي حيان التوحيدي عندما أحرق كتبه في آخر حياته وقال: «إني جمعت أكثرها للناس ولطلب المثابة منهم، ولعقد الرياسة بينهم، فحُرمت ذلك كله ..».

فهل يعتبر عشاق الشهرة من جميع أصناف البشر سواء كانوا من أصحاب القلم أو السيف؟ إنها باطل الأباطيل وهذا ما يشعر به الإنسان قبل رحيله إلى الآخرة.

* * *

• قيل لبعض الحكماء: لِمَ لا يجتمع العلم والمال؟

- قال: لعز الكمال.

• لا تكترث لغربتك فإن العاقل لا غربة عليه.

ابن المقفع

* * *

لا تحكم على الكتاب من غلافه

قصة طريفة وحقيقية
أين أغنياؤنا منها ؟

توقف القطار في إحدى محطات مدينة (بوسطن) الأمريكية، وخرج منه زوجان يرتديان ملابس بسيطة، وبخطوات وئيدة خجولة توجه الزوجان إلى مكتب رئيس جامعة (هارفارد) يطلبان مقابلته دون موعد مسبق، ولكن الرئيس مشغول، وانتظر الزوجان طويلاً، فما كان من السكرتيرة إلا أن التمست من الرئيس أن يقابلهما ولو لبضع دقائق.

دخل الزوجان، وتحدثت الزوجة مع الرئيس قالت: كان لنا ولد درس في جامعتكم لمدة عام، ولكنه توفي في حادث، وبما أنه كان سعيدًا في هذه الجامعة، فقد قررنا تقديم تبرع لتخليد اسم ابننا. رد الرئيس بخشونة: سيدتي، لا يمكننا أن نقيم مبنى لنخلد ذكرى كل من درس في هارفارد، وإلا تحولت الجامعة إلى غابة من المباني والنُّصُب التذكارية. ردت السيدة: نحن لا نرغب في وضع تمثال، بل نريد أن نهب مبنى يحمل اسم ابننا، قال الرئيس غاضبًا وهو ينظر إلى ملابسهما المتواضعة: هل لديكم فكرة عن كلفة بناء مثل هذا المبنى؟ لقد كلفتنا مباني الجامعة ما يربو عن سبعة ملايين دولار. هنا استدارت السيدة وقالت لزوجها: سيد (ستانفورد) مادامت هذه هي

تكلفة إنشاء جامعة كاملة فلماذا لا ننشئ جامعة جديدة تحمل اسم ابننا؟ فهز الزوج موافقًا.

سافر الزوجان إلى كاليفورنيا وأسسا جامعة (ستانفورد) العريقة التي مازالت تحمل اسم عائلتهما إلى اليوم. حدث هذا في عام ١٨٨٤م.

هكذا كان عقلاء الغرب ينفقون أموالهم على مشاريع كبيرة ومهمة وواعدة للمستقبل، على المدارس والجامعات والمشافي والمؤسسات الخيرية، فهل يتنبه المخلصون من أهل الخير والعقلاء من أمتنا لأولويات التبرع والإنفاق والاهتمام بالعلم والعلماء، ويساعدهم في هذا أن يمتلكوا الشجاعة لإنفاق المال فيما ينفع ولا يخافون لومة لائمة ولا نقد شانئ لا يريد خيرًا للأمة.

إن قصة جامعة (ستانفورد) فيها عبرة وأي عبرة.

* * *

أقوال

- المال الخفيف يحملك، والمال الثقيل تحمله.
- كلما قلت الرحمة زادت أجور الأطباء والمستشفيات.
- لا تستر عن الصديق ما يعرفه العدو.

* * *

نزهة المشتاق في اختراق الآفاق

في الحضارة الإسلامية أسماء لامعة لا تذكر كثيرًا، ولكنها من العبقريات التي ساهمت في بناء هذه الحضارة علميًّا، فالاهتمام دائمًا للأسماء الكبيرة في السياسة والفتوح.

هذه العبقريات العلمية المخلصة للعلم كل الإخلاص هي التي يجب أن نعيد ذكرها، وننشر محاسنها، ونلتفت إلى إنتاجها، ومن هؤلاء الجغرافي الكبير الشريف الإدريسي، الذي كتب عن العالم الإسلامي، وهو يعيش حضارة متفوقة علميًّا وفكريًّا. كتب وهو يشعر بالمسئولية عن وطنه الإسلامي، فهو يصف بحاره وأنهاره ومدنه وقراه ويصف الأرض الإسلامية وما فيها من مزروعات وما عليها من صناعات. وعن الشعوب الإسلامية ولغاتها وأخلاقها ومذاهبها ...

كان ذلك في عام ٥٤٨هـ، وهو يعيش في جزيرة صقلية، التي انتزعت من المسلمين، ويحكمها (روجار) النورماندي، وهذا الحاكم هو الذي أعد للإدريسي كل ما يطلبه لمشروعه الجغرافي، وقد رسم له الإدريسي شكل الأرض على كرة ضخة من فضة. ثم حول هذا الرسم إلى خريطة مسطحة.

واللافت للنظر هو عنوان الكتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)؛ لأنه يدل على فكر المسلم وعقل المسلم، إنه اختراق الآفاق، العالم الإسلامي كله مفتوح أمامه ليس هناك حدود ولا رسوم، العالم الإسلامي كله مجال للاهتمام.

إن همة المسلم لا تنحصر في بقعة صغيرة ولا مجال ضيق. لقد علم هذا الجغرافي المسلم أن الإسلام عالمي النزعة، فأين هذا من دعاوى الإقليمية والوطنية الضيقة التي بدأت تصخ الآذان في هذه الأيام؟! بل والهجوم على أي فكرة فيها اتحاد أو وحدة أو تنسيق بين المجتمعات الإسلامية، فكل بلد يهتم بنفسه، وشعب كل بلد بدأت تناوشه النوازع الأنانية، وحاصر نفسه بنفسه.

«كان علماء الجغرافيا في حضارتنا الإسلامية يصلون الأمة ببعضها أفقيًّا ومكانًا، وكان علماء التاريخ يصلونها عموديًّا وزمانًا، وكانوا على علم بما جرته السياسة الصغيرة الضئيلة من تمزيق للوطن الإسلامي، ومن تناحر على أشبار من الأرض»[1].

* * *

أصناف الناس

«الناس ثلاثة: خيّر، وشرير، ومهين. فالخيّر هو الذي إذا أقصيته قبض نفسه عنك ولسانه من سوء الذكر لك وذكر حسنًا إن كان تقدم منك، والشرير يقبض نفسه عنك ويطلق لسانه في ذكر معايبك، وربما تعدَّى إلى الكذب عليك، والمهين لا يقبض نفسه عنك، ولا يزال متضرعًا لعفوك، ومودة هذا مقرونة باستقامة حالك وصلاح أمورك فإن انتقلا انتقل بمودته».

أسامة بن منقذ في «لباب الآداب»

---

(١) حسين مؤنس: تاريخ الفكر العربي، ١٣٤.

أمثالنا المتضاربة

كثيرة هي الأمثال التي نسمعها في مجتعاتنا (بل هي أكثر من اللازم) نسمعها ونحن صغار، ربما لا نفقه معناها ومغزاها، ولكن الذاكرة تحفظها، وعندما نستعيد كثيرًا من هذه الأمثال نتعجب كيف أن بعضها متناقض مع بعض، فهي تربك وتشوش ذهن الإنسان، وبعضها ينطق بالحقيقة لأنها نتيجة تجربة طويلة للشعوب مع أمور الحياة.

ومن أمثلة هذا التناقض: مثل يدعو إلى الاقتصاد في المال، والاهتمام بكل قرش تحسبًا للطوارئ وللمستقبل: (خبئ قرشك الأبيض ليومك الأسود)، وهذا حسن إن كان باعتدال بين الإسراف والبخل، ولكن هناك بالمقابل مثل يدعو إلى صرف كل قرش، وعدم الاهتمام بالقادم من الأيام: (اصرف ما في الجيب يأتيك ما في الغيب).

وهناك مثل يدعو إلى سوء الظن بالناس، كل الناس، والتحذير من الأصدقاء خاصة والأقارب: (الأقارب عقارب)، وكقولهم:

احذر عدوك مرة ∴ واحذر صديقك ألف مرة
فلربما انقلب الصديق ∴ فكان أعلم بالمضرة

هل هذه قاعدة عامة؟ بالتأكيد ليست كذلك، فكيف يعيش الإنسان مع هذه الهواجس ضد الأقارب والأصدقاء، بل إن الصداقة نعمة يطمئن لها الإنسان في السراء والضراء، وتسري عن الإنسان همومه وغمومه.

وهناك أمثال يفهمها بعض الناس وكأنها دعوة للتواكل والرضا بأدنى الأشياء من العيش الكسول، وأما إذا كانت تعني الرضا بما قسم اللَّـه من الرزق، فهذا صحيح، كقولهم: (القناعة كنز لا يفنى)، وأمثال تدعو إلى السعي والعمل (وهي صحيحة)، فالإنسان مأمور بالسعي والجد في الطلب، والرزق على اللَّـه سبحانه وتعالى، والمسلم همته عالية لا يرضى بأدنى المنازل، وخاصة في الأمور التي ترفع من شأن الدين وشأن الإنسان والأمة.

كل الأمم عندها أمثال، قد تكون صحيحة وقد تكون غير ذلك، ولكن مجتمعاتنا متخمة بالأمثال والحكم النظرية التي لا تأخذ مجراها إلى التطبيق العملي، والمشكلة أيضًا أنها تلقن للصغير حتى يضيق بكثرتها، والأصل أن يعمل الإنسان، فإذا أخطأ ينبه للصواب، فيكون وقع النصيحة إيجابيًّا، وتكون النصيحة عملية مستمدة من الواقع. وهكذا كانت تربية القرآن للمسلمين زمن التنزيل، فكانت الآيات تعاتب أو تشجع أو تصحح وتنبه للأخطاء ومزالق الشيطان، فيكون ذلك أوقع في النفوس، وهي تربية عملية لها أثرها المحقق.

* * *

فهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم	٥
١- الصداقة والصديق	٧
٢- شخصية المسلم المعطاء	٩
٣- إنسانية الإنسان	١١
٤- كلام بلا معنى	١٣
٥- ولا خير الرجال سمينها	١٥
٦- السيدة لا (الفارسة)	١٧
٧- عندما يتاجر بالإنسان	١٩
٨- ما هي الحضارة	٢١
٩- العقاد كما يراه الآخرون	٢٣
١٠- الإنسان السنغافوري	٢٦
١١- البحث عن السعادة	٢٨
١٢- أهل المدن الكبرى	٣١
١٣- المادية الإسلامية	٣٤
١٤- الأمل الإيجابي	٣٦

الموضوع	الصفحة

١٥- عشاق الكتب ٣٨
١٦- الإنسان والبيئة ٤١
١٧- الطفل والتربية ٤٣
١٨- ألهاكم التكاثر ٤٥
١٩- الرياضة الصحية ٤٨
٢٠- توجيه المال ٥٠
٢١- المساواة ٥٢
٢٢- رسائل إلى الشابات المسلمات (الظاهر والباطن) ٥٥
٢٣- رسائل إلى الشابات المسلمات (الاستهلاك) ٥٧
٢٤- رسائل إلى الشابات المسلمات (لماذا هذا الاهتمام؟) ٥٩
٢٥- رسائل إلى الشابات المسلمات (حمل الرسالة)..... ٦٢
٢٦- رسائل إلى الشابات المسلمات (الهوية) ٦٥
٢٧- رسائل إلى الشباب (ضبط الغرائز وحمل المسئولية) ٦٨
٢٨- رسائل إلى الشباب (الشهادات)..... ٧٠
٢٩- رسائل إلى الشباب (في الجامعة)..... ٧٢
٣٠- بين الشباب والشيوخ ٧٤
٣١- عاداتنا السيئة ٧٦
٣٢- الصداقة والألفة ٧٨
٣٣- ثورة المعلومات ٨٠

الموضوع	الصفحة

٣٤- القراءة ٨٢
٣٥- الرحلة في طلب العلم ٨٤
٣٦- البيروقراطية ٨٦
٣٧- شباب الجسم وشباب العقل ٨٨
٣٨- عبرة ٩٠
٣٩- لا تحكم على الكتاب من غلافه ٩٢
٤٠- نزهة المشتاق ٩٤
٤١- أمثالنا المتضاربة ٩٦
الفهرس ٩٩

* * *